التعصب المذهبي

وأثره على وحدة الأمة الإسلامية

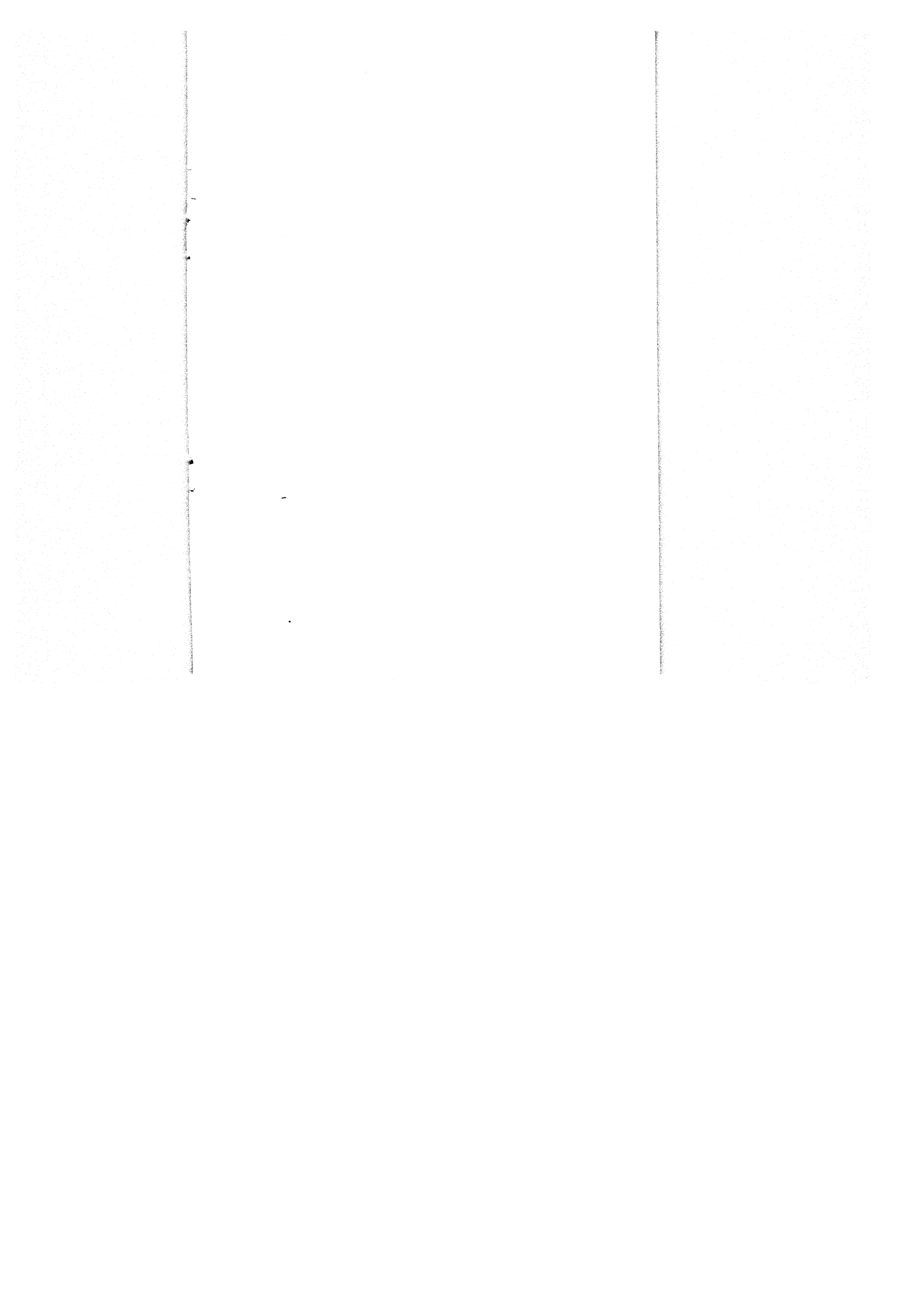
دكتور

إبراهيم عبد الشافي إبراهيم

الأستاذ [illegible] بجامعة الأزهر

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ ــ ٢٠٠٤م



بسم الله الرحمن الرحيم

" مقدمة "

الحمـــد لله رب العـــالمين ، والصـــلاة والســـلام على المبعوث رحمة للعالمين . سيدنا محمد وعلى آله ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين .

وبعد ..

فـــلقد وجه الإسلام الأمة الإسلامية إلى الوحدة والاعتصام بحبل الله ــ ونهاهم عن النزاع والشقاق ، وبين أن نتيجة هذا النزاع هي الفشـــــــل والضياع " **ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم** " الأنفال : ٤٩ .

ولقـــد كـــان من الآفات التي أصيب بها بعض العاملين في حقل الدعوة الإســـلامية هـــي آفة التعصب لآراء بعينها ، أو لرجال بعينهم ، أو لمذهب بعينه ، واستشرت هذه العدوى في محيط الأمة ، وأصبحت كل جماعة من الجماعـــات لا يهمها مصلحة الإسلام بقدر اهتمامها بالمذهب الذي تتبناه ، وللأســـف الشديد فقد شوه الكثير صورة الإسلام في كثير من البلدان الغير إســـلامية ؛ لأن عرض الدعوة الإسلامية كان مقروناً بالتحيز لمذهب بعينه ولمدرســـة بعينها ، فباءت الدعوة بالفشل ؛ لأن عنصر التحيز المذهبي كان واضحاً .

نعـــم : إن الإسلام فيه مدارس فكرية وفقهيه ، والأساليب والمناهج قد تختـــلف مـــن مدرسة إلى أخرى باختلاف الظروف والحاجات ، وفي هذا العصر الذي تآمرت علينا قوى البغي وتداخلت فيه مجريات الأحداث.علينا أن نـــلم الشـــمل ، ونستفيد من جميع المدارس ــ البعيدة عن الهـــــوى والانحراف ــ ونلتقي تحت هدف واحد ،ألا وهو : إعلاء كلمة الله ، وبناء الأمـــة الإســـلامية الواحدة ، التي أمر الله بقيامها ، الأمة التي تحمل رسالة

الله إلى الـــناس بعـــد النبوة الخاتمة ، الأمة التي تنهض بحمل الأمانة التي حمله الله إياها .

إن الواقـــع يفرض علينا نحن المسلمين أن نتحد ، ذلك أن العصر الذي نعيـــش فيـــه لا يتكلم إلا بلغة التكتل والاتحاد ، فكيف يتفرق إذن أصحاب العقيدة الواحدة والقبله الواحدة والكتاب الواحد والأهداف الواحدة ... ؟!!
كيف نترك للعدو أن يمزق صفوفنا من الداخل ؟

إنه يريد ذلك لكي ينفرد بكل منا على حدة حتى ينقض عليه ويمزقه .

إنـــنا كمســـلمين يجـــب علينا أن نحشد كل إمكاناتنا وطاقاتنا لمواجهة الأعـــداء الحقيقييـــن الذيـــن يريدون إطفاء نور الله ، لا لنبدد وقتنا في فتح جبهات داخلية وخلافات جانبية في بعض المسائل ، نقيم الدنيا ونقعدها بتلك المسائل ، في حين أن العدو لا يغفو عنا لحظة واحدة ، وصدق الله العظيم إذ يقـــول : " **والذيـــن كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير** " الأنفال : ٧٣ .

والواقع أن معظم المتعصبين يتصارعون على خلافات جُزئية ناسين أو متناســـين الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تدعو إلى وحدة المسلمين أهل كلمة التوحيد ، والتي تدعو ايضا إلى الأخوة ووحدة الصف .

ومـــن هـــذا المنطـــلق أردت أن أســـاهم مع إخواني الباحثين في هذا المضـــمار بـــنذر يســـــير أحاول من خلاله جمع الكلمة وتوحيد الهدف ؛ فقمـــت بكـــتابه هذه السطور تحت عنوان : " التعصب المذهبي وأثره على وحدة الأمة الإسلامية " وقد ضمنته خمسة مباحث :

المبحث الأول : دعوة الإسلام إلى التوحيد والوحدة .
المبحث الثاني : أهم الأسباب التي تدعو إلى التعصب .
المبحث الثالث : الطريق إلى علاج التعصب .

المبحث الرابع : أثر التعصب المذهبي على وحدة الأمة .

المبحث الخامس : العمل على وحدة الأمة الإسلامية .

إن غاية ما نهدف إليه هو رأب الصدع ولم الشمل والالتقاء حول مظلة واحـــدة ، والقضاء على أسباب التمزق والتفرق بين هذه الأمة ، واستمرار التواصـــل والـــتحاور بيـــن علماء الإسلام لتعزيز هذه الفكرة والعمل على نشرها ما أمكن .

أســـأل الله ــ ســـبحانه ــ أن يســـدد خطانا ــ وأن يجعل عملنا خالصاً لوجهه الكريم ، إنه حسبنا ونعم الوكيل .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

دكتور

إبراهيم عبد الشافي إبراهيم

القاهرة في : ٣٠ / ٦ / ٢٠٠٣

لماذا نقدم هذا البحث ؟

مـــن الأمـــور المسلمة اليوم : إن الأمة الإسلامية تمر بمنعطف خطير وأزمة شديدة عاصفة ، ذلك أن الأعداء قد تكالبوا علينا ، واستغلوا عصبية الكـــثير منا ، الداعية إلى الافتراق والتشتت ، وألهونا بمسائل هامشية على حساب ديننا وهويتنا .

وممـــا لا شـــك فيه أن أعداء الإسلام يؤلمهم اشد الألم أن تكون هناك رابطة إسلامية تجمع كلمة المسلمين وتوحد صفهم .

ومنذ أن سقطت الخلافة الإسلامية ــ التي أجهز عليها أولئك المتآمرون ــ والمسلمون يعانون من التمزق والانفصام حتى أصبحت القوميات والنعرات العصـــبية وســـيلة لأعداء الإسلام من أجل السيطرة على البلاد الإسلامية وتأليب بعضها على بعض ،وذلك من أجل إضعاف وحدتها وتمزيق شملها.

لقـــد كان لإلغاء الخلافة الإسلامية وهدمها الأثر العميق ؛ الذي أصاب الأمـــة فـــي مقـــتل ، فأصبحت بعده أحزاباً وأشياعاً ، كل حزب بما لديهم فـــرحون ، ونســـى الكثير من المسلمين أن النسب الأعلى الذي ينتمون إليه ويتشـــرفون به هو الإسلام ، بعقيدته الثابتة ، التي لا تتغير ولا تتبدل ، فهم أبناء الإسلام لا أبناء الأوطان والأقوام والقبائل والمذاهب .

إن خطـــط أعـــداء الإســـلام واضـــحة كل الوضوح ، سواء لمحوا أو صرحوا فأعمالهم تظهر ما يبيتون ، فماذا نحن فاعلون ؟

إن الله ــ ســـبحانه ــ كشف لنا عن عثرات الطريق وأخطاره وبين لنا أن موالاة الأعداء والاستعانة بهم في ضرب المسلمين سلوك غير إسلامي " **يأيها الذين أمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يالونكم خبالاً ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون** " آل عمران : ١١٨

" **يآيهـــا الذيـــن آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالموده وقد كفروا بما جاءكم من الحق** " الممتحنة: ١

لابـــد مـــن تدارك الموقف لتجاوز أخطار هذه المحن التي تمر بها أمة الإســـلام اليوم ، ولابد من تضييق الفجوات ، وسد الثغور ، وتوحيد العمل الإســـلامي ، بعيـــداً عـــن التعصـــب والبغضـــاء ، وغرس روح التعاون والمشاركة بين الجميع .

يقول المبشر " لورانس براون " : " إذا اتحد المسلمون في إمبراطورية عـــربية أمكن أن يصبحوا نقمة على العالم وخطراً ، أو أمكن أن يصبحوا أيضـــاً نعمـــة له ، أما إذا بقوا متفرقين فإنهم يظلون حينئذ بـــلا وزن ولا تأثير " [١]

وفي سنة ١٩٠٧ عقد مؤتمر أوربي كبير برئاسة بريطانيا ، واستمر المؤتمـــر شـــهراً من الدراسات والنقاش ، واستعرض المؤتمرون الأخطار الخارجيـــة التي يمكن أن تقضى على الحضارة الغربية الآفلة ، فوجدوا أن المسلمين هم أعظم خطر يهدد أوربا ، فقرر المؤتمرون وضع خطة تقضى بـــبذل جهودهم كلها لمنع أي اتحاد أو اتفاق بين دول الشرق الأوسط ، لأن الشـــرق الأوسط المسلم يشكل الخطر الوحيد على مستقبل أوربا ، وأخيراً قـــرروا إنشـــاء قومية غربية يهودية معادية للعرب والمسلمين شرقي قناة الســـويس ليـــبقى المسلمون متفرقين ، وبذا أرست بريطانيا أسس التعاون والـــتحالف مع الصهيونية العالمية التي كانت تدعو إلى إنشاء دولة يهودية في فلسطين [٢]

((١) كيف هدمت الخلافة ، نقلا عن الشباب المسلم في مواجهة التحديات ص ٤٩ عبد الله ناصف طاحون ـ ط ١ دار السلام ١٤١٣ هـ ـ ١٩٩٣م .

(٢) نفسه ص ٤٩ .

إنها مخططات قديمة ، ليست وليدة اليوم يحيكها أعداء الإسلام للقضاء عــلى الإسلام وعقيدته ، ألا فليتفهم الشباب المسلم مسيرته ، وليحكم سفينته ، ويــنحى الخلافــات من طريقه ، ويعرف كيف يبدأ وكيف ينتهي ؟ حتى يتمكن من إجهاض هذه المخططات المتآمرة على الإسلام ، وليعلم أن الأمة الإســلامية مســتهدفة ، ولــم تعد الأمور خافية على أحد بعد هذه الهجمة الشرسة ، التي يشنها المتربصون بالإسلام ، فالقضية قضية عقيدة بالدرجة الأولى قــبل أي شــيء آخــر ، فلابد من الالتقاء الفكري على هذه العقيدة الواحــدة ، وبالــتالي الالــتقاء على عاطفة دينية واحدة ، وأهداف واحدة ، وغايات واحدة .

المبحث الأول

دعوة الإسلام إلى التوحيد والوحدة

إن الكون بما فيه خلق لله ــ عز وجل ــ هذا الإله الواحد " الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد "

ولقـــد جـــاء الإسلام لنبذ خرافة تعدد الآلهة . قال تعالي " **وقال الله لا تتخذوا الهين اثنين إنما هو إله واحد فإلى فأرهبون** " (١)

وقـــال جل شأنه " .. **ومن بلغ أينكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى قل لا أشهد قل إنما هو إله واحد** " (٢)

هـــذا الإلـــه الواحـــد هو الولي والوكيل على جميع الناس ، ولا يجوز لأحـــد أن يعـــتقد أو يتوكل أو يرتبط قلبه إلا به سبحانه ، قال تعالى : " **أم اتخـــذوا من دونه أولياء فالله هو الولي وهو يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير** " (٣)

هـــذا الإله الواحد في الاعتقاد يفرض علينا توحيد العمل ، فمن التوحيد تأتي الوحدة عطاء للمخلوقين من الله عز وجل . قال تعالى : " **واعتصموا بحـــبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً ..** " (٤)

ولقـــد طـــلب الله سبحانه ــ من الأمة أن توحد كلمتها وألا تكون شيعاً وأحزاباً يضرب بعضهم أعناق بعض "

" **وإن هذه أمتكم أمة واحدة** " (٥)

---

(١) سورة النحل الآية ٥١ .
(٢) سورة الأنعام الآية ١٩ .
(٣) سورة الشورى الآية ٩ .
(٤) سورة آل عمران الآية ١٠٤
(٥) سورة المؤمنون الآية ٥٢ .

وكل من يعمل على لمّ الشمل ، ويسعى إلى التأليف بين القلوب وتوحيد الأهـداف هـو مؤمـن حقاً ، يجاهد في سبيل أعظم وأنبل غاية دعا إليها الإسلام ، فلا يوجد دين دعا إلى الأخوة التي تتجسد في الاتحاد والتضامن والتقارب والتعاون مثل الإسلام .

ولقـد أعلن الإسلام أن الأخوة الواشجة هي الرباط المقدس بين جماعة المسلمين ، وهي العنوان المعبر عن حقيقة الإيمان : " **إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون** " (١)

ومن أجل حماية هذه الأخوة مما يشوهها ويؤذيها من اللمز والسخرية ، وسـوء الظن ، والتنابز بالألقاب والغيبة والنميمة ــ أقام القرآن سياجا من الآداب والفضـائل الـتي تحمي الأخوة والمودة قال تعالى : " **يآيها الذين آمـنوا لا يسـخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نسـاء عسـى أن يكن خيراً منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون . يآيها الذيـن آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغـتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه وأتقوا الله إن الله تواب رحيم** " (٢)

ولقـد دعـت السنة النبوية إلى الأخوة والوحدة بين المسلمين ، ونفرت من الشذوذ والفرقة يقول ــ صلى الله عليه وسلم ــ :

" إن الله لا يجمع أمتي على ضلاله ، ويد الله مع الجماعة.ومن شذ شذ في النار " (٣)

---

(١) سورة الحجرات الاية ١٠ .
(٢) سورة الحجرات الآية ١١ ، ١٢ .
(٣) رواه الترمذي

وعــن أبـــي هريرة ـــ رضى الله عنه أنه قال: قال رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ :

" والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام بينكم " (١)

إن المجــتمع الإســـلامي تـــربطه في الحقيقة آصرة واحدة هي آصرة العقيدة ، وفي هذه العقيدة تذوب الأجناس والألوان واللغات ...

وبوحدة العقيدة يتوحد كل شيء ، فإذا كان المسلمون يؤمنون بإله واحد لا شريك له ، فإنهم يتجهون في صلاتهم إلى قبلة واحدة ، وهم في صلاتهم يقتدون بإمام واحد ، يتبعونه ، ولا يسبقونه أو يخالفونه .

وهـــم أيضاً يصومون رمضان إذا رأوا الهلال وطلع الفجر ، ويفطرون إذا أروا هـــلال شوال ويخرجون في كل مكان يرددون نفس الكلمات : الله أكـــبر . الله أكـــبر . الله أكـــبر . لا إله إلا الله . الله أكبر . الله أكبر . ولله الحمد .

وهـــم أيضا في الحج يلبون نداء واحداً ، صدر إليهم من عهد خليل الله إبراهيم ـــ عليه السلام ـــ وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

ووحـــدة الأمـــة الإســـلامية لا تصطدم مع أية خصائص يتميز بها كل شـــعب من شعوب الأمة الإسلامية مادامت في الإطار المشروع ، وطالما أن الجميع ملتزمون بالقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة (٢)

لقـــد كـــان الناس قبل الإسلام جماعات متنابذة وفرقاً متعادية ، وأهواء متعارضـــة ، فكان من فضل الله عليهم أن بعث إليهم نبي الرحمة صلوات

---

(١) رواه مسلم

(٢) حولية كلية أصول الدين العدد السادس ص ١٧ بحث للأستاذ الدكتور محمود حمدي زقزوق.

الله وسلامه عليه لكي يجمع على الإيمان قلوبهم ، ويوحد على طريق الحق صفوفهم ، ويزيل من نفوسهم كل أسباب الشحناء والبغضاء ، وظل صلوات الله وسلامه عليه يجاهد في الله حق جهاده،مستمدا منه العون،حتى ارتفع صرح المجتمع الإسلامي القائم على الأخوة في الله ، وصارت الرابطة التي تجمع المسلمين جميعا هي رابطة العقيدة وأخوة الدين ، وبذلك تحطمت كل الحواجز التي تدعو إلى التعصب والتنافر ، هذه الأخوة هي روح الإيمان الحي ، ولباب المشاعر الرقيقة ، التي يكنها المسلم لإخوانه ، حتى إنه ليحيي بهم ويحيا لهم ، فكأنهم أغصان انبعثت من دوحة واحدة .

يقول الفيلسوف الإنجليزي " توماس كارليل " في وصفه للأمة العربية بعد الإسلام : " قوم يضربون في الصحراء ، لا يعتني بهم عدة قرون ، فلما جاءهم النبي العربي ، صاروا قبلة الأنظار في العلوم والمعارف ، وكثروا بعد أن كانوا قليلين ، وعزوا بعد أن كانوا أذلاء ، ولم يمض قرن بعد الإسلام حتى استضاءت أطراف الأرض بعقولهم وعلومهم " (١)

---

(١) نقلا عن كتاب : الأخوة الإسلامية ص ٨ عبد الرب النبي على أبو السعود ط ١ مكتبة وهبه ١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م ، وانظر نفس المرجع ص ٣٠ .

أسس ثابتة لدى المسلمين

١ ــ إن جميع الخلائق أنسهم وجنهم ، متساوون في عبوديتهم لله ــ عز وجل ــ الذي خلقهم وصورهم كيف شاء ، وهم كلهم عبيد الله ، وهو وحده المعبود المتعالي ، قال الله تعالى : " **يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم** " (١)

ويقول جل شأنه :

" **لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذابا أليما ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً** " (٢)

ولقد نعى القرآن الكريم على أولئك الذين زعموا ــ باطلاً ــ أنهم أبناء الله وأحباؤه ــ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ــ قال تعالى :

" **وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق** " (٣)

ولقد أجمعت الأمة الإسلامية منذ فجر الإسلام وعصر الصحابة ــ الذي هو خير العصور ــ على هذا المبدأ ، فلا اعتبار لجنس ولا لقومية ، ولا للغة ، ولا لمذهب ، ولا لطائفة ، إلا بقدر ما يحقق لأتباعه من تقوى وسلوك وفق كتاب الله وسنة رسوله ــ صلى الله عليه وسلم .

---

(١) سورة الحجرات الآية ١٣ .
(٢) سورة النساء الآية ١٧٦ .
(٣) سورة المائدة الآية ١٨ .

٢ ـ إن اختلاف الناس أمر ضروري فطري مغروز في طباع الناس تبعا لاختلاف ميولهم وتصوراتهم ومداركهم العقلية أو النفسية والعاطفية ، **وقد علم الله ـ عز وجل** ـ منهم وهو الذي خلقهم **فقرر هذا المبدأ وقال : " ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم** " (١) وذلك **الاختلاف ـ مهما كان** حاداً أو عنيفاً ـ تجده بين والد وولده ، وزوج وزوجته ، وأخ وشقيقه ، وجار وجاره ، وشيخ وتلميذه ... فضلاً عما إذا كانت هناك بعض الفوارق والمميزات ، التي من شأنها أن تباعد بينهما زماناً أو مكاناً أو اتجاهاً وفكراً ، وعليه فلا غضاضة إذن في الخلاف ، بل العجب ألا يقع ؛ لأن عدم الاختلاف يدل على جمود الأفكار والعقول ، وتحجرها وتعطلها ، وإما على تبعية البعض للبعض إلى حد التقليد الأعمى ، ومن هنا تتعطل المواهب والقدرات .

٣ ـ إن الخلاف الواقع بين المذاهب الإسلامية الموجودة اليوم ـ مع استبعاد الغلاة والمنحرفين ـ سواء كانت فكرية أو فقهية لا تجده ـ عند التأمل والبحث ـ خلافاً حقيقيا جوهريا مما من شأنه أن يورث العداوة والبغضاء بين المسلمين فضلاً عن تقاطعهم وتدابرهم وتنازعهم وتقاتلهم ؛ بل إنه عند التأمل لا نجد بين المذاهب الإسلامية الصحيحة إلا مثل ما نجده من خلاف بين عالمين في مذهب واحد في وجهة نظر في حكم شرعي على أمر من الأمور المستجدة ، أو ما نجده بين الابن والأب أو بين الأخ وأخيه في قضيه عائلية ، دون المساس بالأسرة وكيانها ، وكذلك

---

(١) سورة هود الآية ١١٨ .

الشـــأن بالنســـبة للأمـــة الإسلامية كأمة واحدة ، ذات مذاهب من أصـــول واحدة ؛ إذ نجدها جميعا تتفق في الأصول العقائدية فتقـــر — جميعها لله عز وجل — بالربوبية والألوهية والوحدانيـــــــة وتـــنزيهيه تعـــالى عن الصاحبة والولد ، وعن أن يشبهه شيء من مخلوقاته ، واتصافه — جل وعلا — بصفات الكمال التي ارتضاها لنفسه ، وأسمائه الحسنى التي أمرنا أن ندعو بها ، والإقرار بالنبوة والرســـالة لمحمد — صلى الله عليه وسلم — من قبل ربه ، ولجميع مـــن ســـبقه مـــن الأنـــبياء والرسل دون تفريق بينهم ، والإقرار بالملائكة وكرامتهم عند الله وعبوديتهم لله كسائر مخلوقاته الأخرى ، والإيمـــان بالكـــتب الـــتي أنزلها الله — عز وجل — على رسله الكـــرام ، وخاصــــة المهيمن عليها وآخرها ، وهو القرآن الكريم ، والإيمان باليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب .

كذلـــك نجـــد أن المذاهب الإسلامية الصحيحة ، تجمع فيما بينها على أصول التشريع العملي ؛ إذ يتفقون جميعا على استقاء دينهم وفقههم وأحكام معاشهم ومعادهم من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة قبل كل شيء ، ومـــن ثم تجد كافة المذاهب الإسلامية متفقه في أصول العبادات من صلاة خمـــس مرات في اليوم ، لا يزيد مذهب صلاة سادسة ، ولا ينقص صلاة فيكـــتفي بأربعة ، وكذلك في صيام رمضان في السنة ، فلا يبدله بأقل وَلا بشـــهر غيـــره ، وكذلـــك وجـــوب الزكاة ، وكذلك الحج إلى بيت واحد ، والاتجـــاه إلى قبله واحدة ، وكذلك يتفقون في أصول المعاملات من تحليل الحـــلال ، وتحريم الحرام كالخمر والميسر والأنصاب والأزلام ، والميتته والـــدم ولحم الخنزير ، وما أهل لغير الله به ، ومثل حرمة السرقة والربا ، والزنا والقتل ....

كـل هذا وغيره ، يعد قدراً مشتركا بين المذاهب الإسلامية سواء كانت مالكية ، أو شافعية ، أو أحناف ، أو حنابلة ، أو أشاعرة أو سنفية أو زيدية أو إباضية ...

٤ ـــ إن هـذه المسـميات المذهبية التي اصطلح على إطلاقها المسلمون هي ـــ في الحقيقة ـــ من وضعهم ، وليست نصية ، ولا من وضع أحـد مـن الأئمة ، وقد ثبت عن جميع الأئمة قولهم ـــ صريحاً أو ضـمنا ـــ إذا صـح الحديـث فهو مذهبي ، وعليه فلا عبرة بهذه الأسماء في التفاضل أو التفاخر ، وليس لمذهب فضل على مذهب آخـر باعتبار الانتساب والانتماء ، وإنما تتفاضل المذاهب بحسب مـا تـتركه في نفوس متبعيها من تقوى وخشية لله ـــ عز وجل ـــ واستقامة في السلوك والأخلاق " **إن أكرمكم عند الله أتقاكم** " (١)

٥ ـــ لم يدّع أحد من أئمة المسلمين ـــ رضوان الله عليهم ـــ سواء كانوا مـن أصحاب المدارس الفقهية أو العقدية أنه احتكر الصواب لنفسه ، وأنـه لا علم إلا ما علمه ، أو أنه لا صحة إلا في مذهبه ، ولن يستطيع أحد أن يدعى ذلك .

وإذا كان الأئمة ـــ رحمهم الله ـــ لم يّدعوا ذلك فلن يستطيع ممن جاؤا بعدهم أن يدعوا ذلك .

كمـا أننا لم نقرأ عن أحد من الأئمة أنه خطأ كل من سواه ، بل الشعار الـذي وضـعه أئمة المسلمين " رأيى صواب يحتمل الخطأ ، ورأى غيرى خطأ يحتمل الصواب " .

---

(١) سورة الحجرات الآية ١٣ .

٦ ــ إن الله ــ تعالى ــ حذرنا في كتابه الكريم في أكثر من موضع من نزغ الشيطان فقال جل وعلا :

" **قـل لعبادي يقولوا التي هي أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم إن الشيطان كان للإنسان عدواً مبيناً** " ولا شك أن النزغ من شياطين الإنـس والجن لا يخلو منه زمان ومكان ، ومن هذا النزغ احتقار الآخرين وإزدرائهم ، وسوء الظن بهم [١]

وهـذا هـو الإمـام الغزالي ــ رحمه الله ــ بالرغم من أنه واحد من المدرسـة الأشـعرية ، إلا أنه يختلف مع الأشعري في كثير من المسائل ، ولا يرى في هذا الاختلاف غضاضة على الإطلاق ، لذا نراه يقول :

" .... أمـا بعد : فإني رأيتك أيها الأخ المشفق ، والصديق المتعصب ، موغـر الصدر ، مقسم الفكر ، لما قرع سمعك من طعن طائفة من الحسدة عـلى بعـض كتبنا المصنفة في أسرار معاملات الدين ، وزعمهم أن فيما يخالف مذهب الأصحاب المتقدمين ، والمشايخ المتكلمين ، وأن العدول عن مذهـب الأشـعري ــ ولو قيد شبر ــ كفر ، ومباينته ولو في شيء نزر ، ضلال وخسر .

فهـون أيهـا الأخ المتعصب على نفسك ، لا تضيق به صدرك ، وقل مـن غربـتك قـليلا ، واصـبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلا ، واسـتحقر مـن لا يحسد ولا يقذف ، واستصغر من بالفكر أو الضلال لا يعرف،فأي داع أكمل وأعقل من سيد المرسلين ــ صلى الله عليه وسلم ــ؟

وقـد قالوا : إنه مجنون من المجانين ، وأي كلام أصدق من كلام رب العـالمين ؟ وقـد قالوا : إنه أساطير الأولين وإياك أن تشتغل بخصومهم ،

---

(١) انظر كتاب : وإن هذه أمتكم أمة واحدة ص ١٣ وما بعدها محمد الشيخ بلحاج ـ مكتبة الضامري ـ عمان ، بدون تاريخ .

وتطمع في إقحامهم ، فتطمع في غير مطمع ، وتصوت في غير مسمع " (١)

إن الإمام الغزالي يهدف من هذا الكلام إلى الرد على المتعصبين والمتشددين ، وأصحاب الآفاق الضيقة ، فقد بين أن هناك طائفة من الناس ترى أن مخالفة رأي من آراء المتقدمين كفر وخسران ، وهذا هو قمة التعصب والشطط ، ويوضح كلامه قائلاً :

" ولعلك – إن أنصفت – علمت أن من جعل الحق وقفاً على واحد من النظار بعينه ، فهو إلى الكفر والتناقض أقرب ، أما إلى الكفر فلأنه نزله منزلة النبي المعصوم من الزلل ، الذي لا يثبت الإيمان إلا بموافقته ، ولا يلزم الكفر إلا بمخالفته .

وأما التناقض ، فهو أن كل واحد من النظار يوجب النظر ، وأن لا ترى في نظرك إلا ما رأيت ، وكل ما رأيته حجة ، وأي فرق بين من يقول قلدني في مجرد مذهبي ، وبين من يقول قلدني في مذهبي ودليلي جميعاً ، وهل هذا إلا التناقض ؟ (٢)

وبناء على ما سبق فقد انتقد الغزالي كثيراً من المسائل الكلامية مثل : مؤاخذة المتكلمين للعوام من الناس بمعرفة الدلائل الكلامية والتقسيمات المرتبة ، وأن من لم يعرف الله عن طريق هذه الأدلة المحررة فهو ناقص في دينه أو شاك في يقينه ، فالأمر أوسع من ذلك وأشمل .

---

(١) فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة ص ٧ ، ٨ مطبعة الترقي ـ مصر .
(٢) المرجع السابق ص ١٨ .

الأصل الديني والمذهبي

ينبغي الإشارة أولاً إلى أن هناك من أصول العقيدة ما هو أصل ديني ؛ أي أنه معلوم عند أتباع الدين جميعا : كالتوحيد والنبوة والمعاد .. ، ومنها ما هو أصل مذهبي ، بمعنى أنه معلوم عند جميع أهل المذهب من المذاهب الإسلامية كالمنزلة بين المنزلتين ــ بالنسبة لمرتكب الكبيرة ــ عند المعتزلة ، والإمامة عند جمهور الشيعة الإمامية ...

والفرق بين الأصل الديني والأصل المذهبي هو : أن الأصل الديني يستلزم إنكاره الكفر والخروج من الدين كإنكار التوحيد أو النبوة ، بينما الأصل المذهبي يستلزم إنكاره الخروج من المذهب لا الكفر والخروج من الدين إلا إذا كان معتقداً بصحة صدوره عن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ لأن إنكاره في هذه الحالة يكون إنكاراً لأصل ديني ، وهو يستلزم الكفر والخروج من الدين .

وبناء عليه : فإن أصول الدين التي أجمع عليها المسلمون على اختلاف فرقهم ومدارسهم ، والتي لا يكون إلا الإيمان إلا بها هي :

١ ــ الاعتقاد بوجود الله ، وبجميع صفاته الثبوتية .

٢ ــ الاعتقاد بنبوة محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ وجميع الأنبياء ــ عليهم السلام- وأنهم صادقون فيما بلغوا عن ربهم .

٣ ــ الاعتقاد باليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب وجنة ونار ..

كما يشترط في الإيمان أيضا : عدم إنكار ما علم من الدين بالضرورة ، وذلك كالإيمان بالملائكة والكتب السماوية المنزلة ، والصلاة والزكاة والحج .. وكل ما ثبت بالدليل القطعي من الكتاب والسنة .

والخلاصة : أن من اعتقد بهذه الأصول ، وصدق إجمالا بكل ما جاء به الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ ولم ينكر شيئاً مما علم من الدين

بالضـــرورة ، فإنـــه يعد مؤمناً ومسلما ، أما من لم يعتقد بهذه الأصول أو أنكر معلوماً من الدين بالضرورة فهو كافر ، وذلك يتصور على وجوه :

١ ــ أن ينكر قبول ما علمه بواسطة الضرورة من الدين .

٢ ــ أن ينكر أنه مما جاء به النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ

٣ ــ أن ينكر أنه على وفق الحكمة والمصلحة [١]

---

(١) أصول الدين الإسلامي ص ٥٨ د. قحطان الدوري ، د. رشدي عليان ط ١ دار الفكر - الأردن ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦م .

المبحث الثاني

أهم أسباب التعصب

١ ــ قلة العلم :

مــن المعــلوم : أن مــن جهــل شيئاً عاداه ، ومن لم يطلع على آراء الآخــرين ، ويــتعرف عليها سوف يتشبث برأيه ، ولو كان خطأً ، وعدم إطــلاع طــالب العلم على الآراء الأخرى قد يولد لديه نفوراً منها ، بل قد يؤدى إلى انتقاد وانتقاص كثير من العلماء المشهود لهم بالخير والصلاح .

وآفــة كــثير من الدخلاء على العلم أنهم لا يعترفون إلا برأي واحد ، ووجهــة واحــدة ، وأســتاذ واحد ، فلا يستمعون إلى آراء الأخرين ، ولا يناقشوا وجهة النظر المخالفة .

ونســي هؤلاء أن الإعجاب بالرأى هو أحد المهلكات وأنه بحسب إمرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، ومن ذلك أن يحقر رأيه [١]

الــبعض ينكر علم الكلام القديم وما فيه من جدليات ، وفي الوقت نفسه ينشأ علم كلام جديد يغرس في العقول حب الجدل والسخرية من العلماء .

والعجيــب فــي الأمــر : أن هؤلاء ينهون عن التقليد وهم في الواقع مقلدون ، يرفضون تقليد القدامى ويقلدون المعاصرين .

إن الاستبداد بالرأي آفة خطيرة يرفضها الإسلام ويأباها ، وقد دل على ذلــك مــنهج رســول الله ــ صــلى الله عليه وسلم ــ وأصحابه الكرام ــ رضــوان الله عــليهم ــ ومواقــف كثير من علماء الإسلام، وهذه بعــض النماذج :

---

(١) الصحوة الإسلامية ص ١٣ وما بعدها د. يوسف القرضاوي ط ٤ - دار الصحوة .

١ ـــ رؤيـــة الله ـــ تعـــالى ـــ الـــتي حدث فيها ما حدث من خلاف بين المعـــتزلة وأهل السنة ، مع أن هذه المسألة مرت مرور الكرام في عهـــد الصـــحابة الكـــرام ، لقـــد كان ابن عباس وبعض الصحابة يجيـــزون الرؤية ، ولهم في ذلك أدلة ، فقد رَوى أن الرســـــــول ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ رأى ربه ليلة عرج به ، وكانت عائشة ـــ رضـــي الله عنها ـــ تنكر ذلك ، وتقول " من زعم أن محمداً ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ رأى ربه فقد أعظم على الغربة " [١]

لقـــد مر الصحابة بهذه المسألة فلم يجدوا ما يحبسهم عندها ولا ما يقيد أفكارهم إزاءها ، ولا ما يشغل العوام بالخوض فيها .

والقضـــية ليست بالأمر الخطير : الذي يثير الخلاف والتطاحن والتنابز بالألقـــاب ـــ طالمـــا أن الفـــريقين يـــنزهان الله ـــ سبحانه ـــ عن التشبيه والتجسيم والجهة ، وذلك أن الفريق الذي ينكر الرؤية ، لا يبغى إلا التنزيه المطلق لله ـــ سبحانه ـــ وخشية الوقوع في التجسيم والتشبيه .

أمـــا الـــذي يـــرى أن الرؤية جائزة ، فإنه يستدل على ذلك بالنصوص الواردة في الكتاب والسنة ؛ لكنه ينزه الله ـــ تعالى ـــ عن التشبيه والتجسيم والجهات والإحاطة .

ولذلـــك فهـــم حيـــنما يجيـــزونها يقولون : إن السمع دل على إمكانها ووقوعها ، ومن ثم فهي تندرج في باب ما يجوز في حقه تعالى [٢]

٢ ـــ حـــدث اختلاف بين عبد الله بن عباس ـــ رضى الله عنهما ـــ وبين زيد ابن ثابت ـــ رضي الله عنه ـــ في مسألة من الفرائض .

---

(١) جامع بيان العلم وفضله ٥٩/٢ للحافظ أبو عمر يوسف بن عبد البر النمرى القرطبي - دار الكتب العلمية - بيروت ١٩٧٨م .
(٢) أصول الدين الإسلامي ص ١٥٢ وما بعدها .

" كان ابن عباس يرى أن الجد يسقط جميع الأخوة والأخوات كالأب .

فقال ابن عباس يوما : ألا يتقى الله زيد ، بجعل ابن الابن ابنا ، ولا يجعل أب الأب أباً ! وود أن يباهل مخالفيه .

وفي يوم ما رأى ابن عباس — رضى الله عنهما — زيداً يركب دابته ، فأخذ بركابه يقود به .

فقال زيد : تنح يا ابن عم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال ابن عباس : هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا وكبرائنا .

فقال زيد : أرنى يدك ، فأخرج ابن عباس يده ، فقبلها زيد ، وقال : هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا ، هل أحدث هذا الاختلاف — بين زيد بن ثابت وابن عباس — قطيعة أو كراهية ؟ هل ازدرى أحدهما الآخر ؟ اللهم لا [١]

٣ — يرى ابن عباس وزيد ابن ثابت وابن مسعود أن قاتل النفس متعمداً لا توبة له ، ويستشهدون على ذلك بقوله تعالى :

" **ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه ، وأعد له عذاباً عظيماً** " [٢]

وقد روى عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس : ألمن قتل مؤمنا متعمداً من توبه ؟ قال : لا ، فتلوت عليه الآية التي في الفرقان :

" **والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما . يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا . إلا من تاب** .. الآية "

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ص ٥٦١ جـ ١ لابن حجر العسقلاني مطبعة السعادة - القاهرة - ط ١١ - ١٣٢٨هـ .

(٢) سورة النساء الآية ٩٣ .

فقال هذه آية مكية نسختها آية مدنيه .

وقيل : إن آية الفرقان نزلت في قوم اقترفوا هذه الذنوب قبل إسلامهم .

وجمهور الصحابة يرون أن للقاتل توبه ، وأن القتل ليس أشنع من الكفر ، والله تعالى يقول :

" **قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف** " (١)

إذن : اختلاف الأنظار من طبيعة البشر ، وقد تفاوتت الأحكام في المسألة الواحدة لدي الصحابة ــ رضوان الله عليهم ــ وفي أمور أخرى متشابهة (٢) لا يتسع المقام لذكرها .

إن الأمثلة أكثر من تحصر ، وإنما مقصودنا من وراء ذلك:هو إظهار المواقف الكريمة التي تبين سماحة الصحابة الكرام فيما يحتمل التأويل ، واحترام بعضهم لبعض ، وعدم تصعيد الأمور ، التي تؤدي إلى الشقاق ، والتزامهم بآداب الإسلام في كل الظروف والأحوال ، فلا تسفيه ، ولا تجهيل ، ولا تفسيق ، ولا تكفير ، ولا شحناء ولا عداء (٣)

إن احتكار الصواب والإعجاب بالرأي قد يستبد بالإنسان فيقيم حجابا كثيفا يحجب بصيرته عن رؤية الحق ، ومتى أمست الفكرة الباطلة جزءاً من كيان الإنسان ، فإنه يصعب عليه أن يتنازل عنها ، ولو انكشف له وجه الحق بعد ذلك ، إلا عند من يحبون الحق ؛ الذين لا تمنعهم العصبية والأنانية ولا العادة عن الرجوع إلى الصواب وهجر ما كانوا عليه ، ولا نعجب إذ رأينا في التاريخ فرقاً متعددة تحمل مذاهب فكرية سقيمة ،

---

(١) سورة الأنفال الآية ٣٨ ، وينظر : عقيدة المسلم للشيخ محمد الغزالي ص ١٩٤ ـ ط ٢ ـ دار الدعوة ـ مصر ـ ١٤٠٩ هـ ـ ١٩٨٩ م .

(٢) المرجع السابق نفس الصفحة .

(٢) ظاهرة الغلو في الدين في العصر الحديث ص ١٨٣ ، محمد عبد الحكيم حامد ط دار المنار الحديثة ١٩٩١ .

انحــرفت عن المنهج الفكري السليم ، وما حدث هذا إلا لسبب إصابة واحد أو جماعــة مــن الناس بمرض الغرور، والإعجاب بالرأي والجهل بما لدي الآخرين .

إن الــنظرة الحــزبية الضــيقة التي تسيطر على البعض ، والتعصب المقيــت للأســماء والأشخاص ، واعتقاد كل طائفة أنها تملك الحق وحدها وأن غيــرها ليــس على شيء ، وتقديم المزاج الشخصي والهوى النفسي ، ومصــادرة حــق الغيــر في التفكير والاجتهاد ـــ واقع مرير واضطراب وتخبط في المناهج والسلوك .

لقد اختلف السلف والأئمة ، وتعددت اجتهاداتهم ووجهات نظرهم ، لكن الإخــلاص في النية لله ـــ وحده ـــ والصدق في القول والعمل ، والالتزام بالعــلم الشرعي والخلق النبوي جعلهم يحرصون خلال ذلك كله على وحدة الكــلمة ، والحفــاظ على الجماعة ، ومراعاة الأدب في النقد، والصبر على المخالف ـــ مهما كان خطؤه ـــ والدعاء له بالهداية والخير [١]

إن من أبرز الأسباب التي أدت ضعف ذل المسلمين هو جمود البعض على أراء معينة والتركيز عليها والتعصب لها ، وللأسف يبذل هؤلاء وقتا كبيراً في الدعوة إلى فرعيات ليست من مصلحة الأمة الإسلامية في الوقت الذي يواجه فيه الإسلام حربا شرسة من جميع الجهات لاجتثاثه من الجذور .

فليس من المعقول أن تقوم بين بعض المشتغلين بالدعوة حرب لا هواده فيهــا بيــن التأويل والتفويض في الآيات المتشابهات ، فهذا ينتصر للسلف وهــذا ينتصر للخلف ، وهواة الخلاف والشقاق يريدون إشعال النار ، وهم لا يدرون أنهم يضرون أنفسهم قبل أن يضروا غيرهم .

---

(١) أهل السنة والجماعة بين التجمع الحزبي والعمل الجماعي ص ٢٢ ، ٢٣ محمد بيومي ـ ط دار الإيمان ١٤١٣هـ .

٢ ـــ الجهل بفقه الدعوة :

ممـــا يؤسف له أن بعض المتعصبين يستخدم أسلوب الغلظة والشدة في إرشـــاد الـــناس ومحاورتهم ، وظن هؤلاء المساكين أن الشدة والقسوة هيا الأسلوب المجدي والرادع في دعوة الناس ، والعجيب أن هؤلاء لا يفرقون بين المخالف على علم ، والجاهل الذي لا يدرى ، ولا بين الداعية للبدعة ، والضـــحية المضلل المخدوع ، ولا بين المنكر المختلف فيه والمتفق عليه ، حـــتى أن البعض ــ للأسف الشديد ــ سلك هذا المسلك مع أقرب الناس ألا وهما : الوالدين سببا وجوده في الحياة ، فلا يقيم لهما حرمة ، ولا يعاونهما ، ولا يقوم على خدمتهما ، وحينما تبحث عن السبب ، تجده في الغالب هو عدم اتباع الوالدين لأوامر هؤلاء ونواهيهم .

ولقد نسوا أن الوالدين ــ بالذات ــ لهما خصوصيات دون سائر الناس ، لا ســـيما دعوتهم وإرشادهم ، ولا يعنى ذلك التنازل عن الالتـــــزام ، والتمســـك بأمور الدين ، أو ارتكاب المعاصي إرضاءً لهم . كلا ، لكن من الواجـــب الأدب فـــي معاملـــتهما ، ولين القول لهما ، وحسن معاشرتهما ، والشفقة والرحمة بهما قال تعالى :

" ووصـــينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين أن اشـــكر لي ولوالديك إلى المصير . وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا.واتبع سبيل من أناب إلى ثم إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون " [١]

ولنـــنظر إلى دعـــوة إبراهيم ــ عليه السلام ــ لأبيه بنبرة شجية ندية هادئـــة يمـــلؤها الأدب والتلطف والحنان." يا أبت " ويثير العجب لدى أبيه

(١) سورة لقمان الآية ١٤ ، ١٥ . ينظر : ظاهرة الغلو في الدين ص ٢٣٣ ، ٢٣٤ .

عـــلى عـــبادة الأصنام:" **إذ قال لأبيه يا أبت لم تبعد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً** " [١]

إن إبراهيم ــ عليه السلام ــ يصرح لأبيه أن الله ميزه بالعلم والمعرفة ، والآبـــاء من طبيعتهم لا يقبلون أن يتفوق عليهم أحد سوى أبناءهم ، فإنهم يطربون بتفوقهم ، بل يظلون طوال حياتهم يعملون على تحقيق هذا التفوق

ومـــع هـــذه الإشـــارة اللطيفة من إبراهيم ــ عليه السلام ــ لا يصرح بالعلم الذي أوتيه ، ولا باسم الذي وهبه إياه ، وذلك مراعاة لشعور أبيه في هـــذه المرحـــلة من مراحل الدعوة " **يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يـــأتك فاتبعـــني أهـــدك صراطا سوياً** " [٢] ، ولما أصر الرجل وعاند بعد وضوح الحجة ، كان لابد من الاعتزال ، لكن بعد هذه الخطوات المقنعة ، فلا عتاب بدون بيان وإقناع حتى مع المعاندين والمكابرين .

لقد أنكر الإسلام أسلوب العنف والشدة في الدعوة ومعاملة الناس ، ودعا إلى اللين والرقة ولو مع الكفار ، ونهى عن أساليب الإثارة والاستفزاز .

ولنـــنظر إلى توجيهـــات رب العزة ــ جل وعلا ــ إلى موسى وأخاه هـــارون ــ عـــليهما السلام ــ عند دعوة فرعون:" **اذهبا إلى فرعون إنه طغى فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى** " [٣]

وهـــذا دليـــل واضح على أن القول اللين في بيان الحق أجدى وأقرب لقبول الذكرى ، وإحداث الخشية ، وشتان بين القول الحسن ، والقول السيئ ومقابلة السيئة بالحسنة ، ومقابلة السيئة بالحسنة ، فالقول الحسن ــ بلا شك يغير قلب العدو اللدود ، ويحوله إلى صديق حميم ، يقول تعالى :

---

(١) سورة مريم الآية ٤٢ .
(٢) سورة مريم الآية ٤٣ .
(٣) سوة طه الآية

" ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم " (١)

إن اللسان حبل مرخى في يد الشيطان يتحكم فيه كيف يشاء ، فإذا لم يملك الإنسان أمره ، كان مدخلا للنفايات ، التي تلوث قلبه ، وتضاعف ذنوبه ، يقول ــ صلى الله عليه وسلم ــ :

" لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه " (٢)

إن لعلل الأجسام وأمراضها ، أطباء يلتمسون الدواء لها ، ويكشفون عن مواطن الداء فيها ، كذلك للنفوس المريضة والقلوب السقيمة أطباء يتعرفون على مواطن العلل فيها ، والعلماء هم ورثة الأنبياء ، وعليهم تبعة الدعوة إلى الله ، وتبصير الناس بأمور دينهم ومعالجة الانحراف الذي يظهر في المجتمع بالحكمة والموعظة الحسنة.فمن الناس خواص ، ومنهم عوام ، ومنهم المعاند المجادل ...

ومن هنا : فإن السياسة في إصلاح النفوس والاستشفاء لها من عللها وأمراضها لا يحسنه إلا من عرف الله حق المعرفة ، فيطلعه على مواقع الأمراض من النفوس ، ويضع على فمه الكلمات العذبة التي تقع على الداء ، فتكون له الدواء والشفاء (٣)

---

(١) سورة فصلت الآية ٣٤ ، انظر : ظاهرة الغلو ص ٢٣٤ وما بعدها .
(٢) مسند الإمام أحمد ، ينظر : عقيدة المسلم ص ٧٨ ، ٧٩ ـ الشيخ محمد الغزالي دار المكتبة الإسلامية ـ مصر ـ ١٩٨٣ م .
(٣) رسالة المسلمين في الحياة ص ٨٨ عبد الكريم الخطيب ط ١ ١٤٠٢ هـ ١٩٨٢م .

٣ ــ أخذ العلم من غير أهله :

لا ينــبغي أن يتصدر لقضايا الدين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا العــلماء الإجــلاء ، الذين يفقهون الدين ، ويأخذونه عن أصوله ، على منهج صحيح سليم .

إن الكفــاءات العلمية مطلوبة في هذا الميدان الخطير ، ذلك أنها أمانة تحتاج إلى مؤهلات صعبة .

ومـــن هنا نرى أن يوسف الصديق ــ عليه السلام ــ يقول للمـــلك : " **اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم** " (١)

ولقد جاء رجل يسأل رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : متى الساعة ؟ فقال له : إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة ، فقال : وكيف إضاعتها ؟ قال إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة (٢)

وممـــا يؤســف لـــــه : أننا رأينا في الآونة الأخيرة استقلالية بعض المتعــلمين والدعـــاة والشـــباب بالاكـــتفاء بأخذ العلم من الكتب والشرائط المسجلة والمجلات ، والعزوف عن العلماء ، وهذه بذرة خطيرة ؛ ذلك أننا لــو رجعـــنا إلى الـــتاريخ نتصـــفحه لوجدنا : أن من أهم أسباب التعصب والافتراق كافتراق الرافضة والخوارج أنهم انعزلوا عن الصحابة ، وأخذوا العــلم عـــن أنفسهم وعن بعضهم ، وقالوا : علمنا القرآن ، وعلمنا السنة ، ولسنا بحاجة إلى الرجال ، فاستقلوا برأيهم وخرجوا عن المنهج الصحيح(٣)

إن الاســتقلالية عـــن العلماء أمر خطير جداً ، ذلك أن العلم إنما تكون بركـــته وتلقيه الصحيح عن العلماء ، والعلماء لا ينقطعون في أي زمان ،

---

(١) سورة يوسف الآية ٥٥ .
(٢) رواه البخاري .
(٣) الافتراق - مفهومه - أسبابه - سبل الوقاية منه ص ٤٥ د. محمد ناصر عبد الكريم العقل ط ١ - دار المسلم - الرياض

ودعـــوى بعض الناس أن العلماء لديهم نقص وتقصير دعوى زائفة ، ذلك أن العـــلماء بشـــر ، لا يخلون من التقصير والنقص ، لكنهم في جملتهم هم القـــدوة والحجـــة ، وهم أهل الذكر ، وهم الراسخون ، وهم الجماعة ، من فارقهم هلك .

لقـــد تتـــلمذ بعض صغار السن على بعضهم ، أو على طلاب العلم ، تـــركوا العـــلماء المتخصصين وانقطعوا عنهم ، فلم يحسنوا الأمور ، ولم يعرفوا صحيح الأقوال من سقيمها ، ولم يجيدوا إنزال النصوص منازلها ، فعمموا حيث لا تعميم ، وأعرضوا حيث يجب الإقبال ، وأقدموا حيث يجب الإحجام [١]

وكثيرا ما نسمع من الشباب : " هم رجال ونحن رجال " كلمة أغرى بها الشـــباب ، وأعجـــبوا بهـــا أيما إعجاب،فقد وجدوا فيها الاعتداد بالنفس ، والأنفة من التبعية للغير ، وهذا ما تميل إليه نفوس الشباب غالباً .

إن هذه الكلمة الرائعة قائلها : هو الإمام أبو حنيفة النعمان ــ رحمه الله ــ ولهـــا مناسبتها ووقتها وظروفها ، كما أن قائلها هو عَلم من أعلام الإسلام المشهود لهم بالبنان .

فـــلا يصـــح أن تستغل هذه الكلمة لخطف الأحكام خطفاً بمجرد قراءة الآية أو الحديث دون تريث وفهم وتعمق .

إن الإمام ــ رحمه الله ــ يقول : " إذا كان القرآن أو السنة فأقدمهما ، وإذا كـــان قـــول الصـــحابي فلا أخرج عنه ، وإذا كان قول التابعي ، فهم رجال ونحن رجال [٢].

---

(١) راجع : ظاهرة الغلو ص ٣١٦ والافتراق ص ٤٦ .
(٢) المرجع السابق ص ٣٢٠ وهو ناقل عن الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء لابن عبد البر .

فالقائل ــ كما أسلفنا ــ إمام فقيه ، منّ الله عليه بالعلم الغزير ، والفهم الثاقب ، والبصيرة النافذة الذي قال في حقه الإمام الشافعي :

" من أراد أن يتبحر في الفقه ، فهو عيال على أبي حنيفة " [١]

إن بعض الشباب المتعصبين لا يحفظ القرآن ، ولا يزيد حفظه من الحديث عما يملأ به صفحات ، والكثير لم يقرأ تفسير القرآن ، وكتب العقيدة ، وشروح السنة ، وليس له أي قدم راسخ في علوم اللغة وآدابها ، ولا الفقه وأصوله ... فرحم الله امرأ عرف قدر نفسه .

إن التفقه بدون أستاذ ينتج عنه ــ بلا شك ــ الآثار السيئة ، والمخاطر الجسيمة ومن أبرزها :

- الجرأة على الفتيا .
- تضليل الناس وتفسيقهم ، بل وتكفيرهم .
- التطاول على العلماء .
- الغلو في فهم النصوص والاتجاه الظاهري في فهمها ..

وقد علمنا الإسلام أن للعلم أبواباً وآداباً ، والفطِن من طرق أبوابه ، وتحلى بآدابه .

ومنذ العهد النبوي عرف المسلمون أن هناك طالب علم ومعلم ، والمرأ يبدأ رحلته في طلب العلم بالتلمذة على أيدي العلماء الذين يرشدونه ، ويوجهونه ، وينصحونه ، ويحلون له ما أشكل عليه ، ويزيلون له ما اغمض أو التبس فيه ، حتى إذا بلغ طالب العلم أشده ، واستكمل رحلته ، ووثق منه أساتذته علماً ، وفهماً وخلقاً ، أجازوا له التصدي للتدريس والفتوى ، وعلى هذا تربى العلماء ، فما من عالم من العلماء إلا وتجد في

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان ٥/٤٠٩ ـ دار صادر بيروت ـ تحقيق إحسان عباس .

سـيرته عـنوانا معـروفاً ومألوفاً ، وهو : شيوخه وتلاميذه ، ورحلاتـه العلمية .

ولقد كثر زجراً العلماء عن تلقى العلم مباشرة من الكتب دون الاستنارة بـآراء العلماء ، والتلقي على أيديهم ؛ لأن هذا يؤدى إلى التحريـف والتصـحيف ، وتـبديل الأحكام وتحليل الحرام ، وتحريم الحلال ، وصدق الله العظيم .

" **فسئلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون** " (١)

وقال جل شأنه :

" **وإذا جـاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم** " (٢)

٤ ـ عدم فهم المصطلحات والتباس المفاهيم :

كثيراً ما يقع المتعصبين ضحية لعدم فهم المصطلحات التي يساء فهمها ووضـع مدلولات من تلقاء أنفسهم فيخرجون بالنصوص عن مقصودها ، ويحملوها فوق طاقتها .

وبالـتالي يفـرخ هذا الفهم الخاطئ أحكاماً جائرة ، ومن ثم الوقوع في محاذير الالتباس ، والخروج على الناس بأحكام غريبة .

ومـن أهـم تلك المصطلحات التي يقع فيها اللبس : " الإيمان والكفر ، والشرك ، والنفاق ...

فهناك آيات كثيرة في القرآن الكريم ورد فيها لفظ الإيمان ، لكن المراد مـنه الإيمان الكامل ، لا مطلق الإيمان ؛ الذي إذا نفى عن صاحبه كفر ،

---

(١) الأنبياء الآية ٧ .

(٢) النساء الآية ٨٣ ، وينظر ظاهرة الغلو ص ٣٢٧ وما بعدها .

وذلــك مثل قوله تعالى : " **إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون ، الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . أولئك هم المؤمنون حقا** " [١]

فالمراد بالمؤمنين في الآية الذين كمل إيمانهم ، وليس المراد أن من لم يوجـل قلبه من ذكر الله ، أو لم يكن من المتوكلين على الله ، يكون خارجاً عن أصل الإيمان [٢]

من ذلك قوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : " لا يزنى الزاني حين يزني وهــو مؤمــن ، ولا يشــرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن " [٣]

فــالحديث هــنا : لا يعنى نفى أصل الإيمان ؛ بل كماله ؛ لأنه لو كان المــنفى أصل الإيمان لكان كل من ارتكب واحدة من هذه الجرائم المذكورة مرتداً ، وكانت العقوبة ــ حينئذ ــ في الجميع واحدة ، ولم تتوع العقوبات ما بين جلد ورجم وقطع ، وإذن فليس معنى الحديث أن من ارتكب واحدة من هذه الكبائر يكون كافراً كفراً مخرجاً من ملة الإسلام .

ومن أمثلة ذلك أيضا :

قوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : " والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، من لا يأمن جاره بوائقة " [٤]

وقولــه ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ " لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه " [٥]

---

(١) سورة التوبة الآية ٤ .
(٢) راجع الصحوة الإسلامية ص ١٢٤ .
(٣) البخاري
(٤) البخاري
(٥) متفق عليه

إن الإســـراع في التكفير من أخطر الأمور التي يجب أن يتحرز منها المســـلم تحرزاً شديداً ، حتى لا يقع في منطقة الخطر ، ذلك أن المسلم لو أخطـــأ فـــي حكمه على أحد المسلمين بالكفر خطئاً لكان الخطأ فادحاً ، وقد يرتد ذلك الحكم عليه .

قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : " من قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما " (١)

وفي حديث آخر قال صلوات الله عليه " ... ومن رمى مؤمناً بكفر فهو كقتله "(٢)

يقول الإمام الشوكاني :

" إن الحكم على الرجل المسلم بخروجه من دين الإسلام ودخوله في الكفر لا ينبغي لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يقدم عليه إلا ببرهان أوضح من شمس النهار ، فإنه ثبت في الأحاديث الصحيحة المروية من طريق جماعة من الصحابة أن من قال لأخيه : " يا كافر فقد باء بها أحدهما "

وفي لفظ آخر : "من دعا رجلاً بالكفر ، أو قال عدو الله ، وليس كذلك ، إلا حار عليه "

ففـــي هذه الأحاديث وما ورد موردها أعظم زاجر ، وأكبر واعظ عن التســـرع فـــي التكفير ، وقال الله عز وجل : " **ولكن من شرح بالكفـــر صدراً** " (٣)

فلابـــد مـــن شرح الصدر بالكفر ، وطمأنينة القلب به ، وسكون النفس عـــليه ، فـــلا اعتبار بما يقع من طوارق عقائد الشر ، لا سيما مع الجهل بمخالفتها لطريقة الإسلام .

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد ومسلم في كتاب الإيمان .
(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد
(٣) سورة النحل الآية ١٠٦ .

ولا اعتـــبار بصـــدور فعل كفرى لم يَرد به فاعله الخروج عن الإسلام إلى مـــلة الكفـــر ، ولا اعتبار بلفظ تلفظ به المسلم يدل على الكفر وهو لا يعتقد معناه " [١]

ولقـــد وردت كلمة الكفر والكافرين في كثير من آيات القرآن الكريم ، وهـــي تحـــتاج إلى دقـــة ودرايـــة في فهمها ، فبعضها يراد به كفر النعمة والآخر يراد به الكفر الأكبر والذي يعني الخروج عن الدين بسبب إنكار ما علم من الدين بالضرورة ، فإذا زال الشكر خلفه كفر النعمة لا الكفر بالله ، فمن ترك فروع الإيمان لا يكون كافراً كفراً عقديا حتى يترك أصل الإيمان إذ لا يلزم من زوال فروع الحقيقة زوال اسمها [٢]

فالكفر الأكبر ــ أي كفر الاعتقاد ــ يقابله الإيمان ، يقال : مؤمن وكافر ، كمـــا في قوله تعالى : " **فمنهم من آمن ومنهم من كفر** " [٣] وقوله تعالى " **الله ولـــي الذيـــن آمـــنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أوليـــاؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات** " [٤] وقوله " **كيف يهدى الله قوماً كفروا بعد إيمانهم** " [٥]

وأمـــا الكفر الأصغر فيقابله الشكر ، فالإنسان إما أن يشكر نعمة الله أو يكفـــر بها ولا يقوم بحقها ، وذلك كما في قوله تعالى : " **إنا هديناه السبيل إمـــا شاكراً وإما كفوراً** " [٦] وقوله سبحانه " **ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم** " [٧]

---

(١) السيل الجرار للإمام الشوكاني ٥٧٨/٤ ـ بتصرف ط دار الكتب العلمية .
(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية ١٣٧/١ .
(٣) سورة البقرة الآية ٢٥٣ .
(٤) سورة البقرة الآية ٢٥٧ .
(٥) سورة آل عمران الآية ٨٦ .
(٦) سورة الإنسان الآية ٣ .
(٧) سورة النمل الآية ٤٠ .

وجاء في الحديث الذي رواه الإمام البخاري في صحيحه ، والذي ذكر فيه السبب في دخول النساء النار : أنهن يكفرن العشير .

والإمــام الــبخاري ــ رضى الله عنه ــ وضع في كتاب الإيمان عدة أبــواب للرد على الخوارج الذين يكفرون المسلمين باقتراف الكبائر ، منها باب كفرن العشير وكفر دون كفر "

وهذه العبارة الأخيرة ــ كفر دون كفر ــ والتي وردت عن ابن عباس فــي تفســير قولــه تعــالى : " **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هــــم الكافــرون** " [١] يدلــنا عــلى أن الكفر درجات متفاوته منها ما هو اصغر ومــنها ما هو أكبر ، وهذا التقسيم نفسه يجرى في الشرك وفي النفاق وفي الفسوق وفي الظلم ، فكل منها ينقسم إلى أكبر واصغر ، وقد ذكر البخاري في صحيحه : باب ظلم دون ظلم :

إن الإسراع بالتكفير فيه تمزيق لشمل الأمة ، وتغذية للفرقة والشحناء بين صفوف المسلمين ، وقد نهى الله - تعالى - عن الفرقة فقال سبحانه : **" ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم "** [٢]

إن التسرع في التكفير يجهز على الأخوة الإسلامية التي تستلزم التراحم والــتعاون والــتواد ، وكل ما هو من صفات المؤمنين ، وفي التكفير أيضاً اســتنزاف لجهــود المسلمين وطاقاتهم التي يجب عليهم ادخارها لمصلحة الإسلام ولمصلحة أنفسهم ، لذا يقول صاحب الطحاوية :

" ولا نكفر أحداً من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله " [٣]

ونعود فنقول : إن فهم المصطلحات والنصوص أمر في غاية الأهمية ، حتى لا تصل الأمور إلى درجة الفوضى في الأحكام .

هدانا الله - جميعاً - سواء السبيل ..

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٠٥ ، ينظر : ظاهرة الغلو والتكفير ص ٥٥ - ٥٧ د. يوسف القرضاوي

(٢) المرجع السابق

(٣) شرح الطحاوية ٣٢/٢

المبحث الثالث

الطريق إلى علاج التعصب

مما سبق عرفنا أهم الأسباب التي تؤدي إلى التعصب ذلك الداء الفتاك : الـــذي ينخر في جسد الأمة ويمزقها ، ويثير التباغض والعداوة بين أفرادها وكان لابد لنا من وقفة مع علاج هذه الظاهرة الخطيرة ،

وبداية نقول : إن من يتصدى لعلاج هذه الظاهرة ينبغي عليه أن يكون متحليا بهذه الصفات .

١ ــ الإخلاص :

فـــالإخلاص روح الأعمـــال ، وسر قبولها ، وبه يكون العون من الله وتوفيقـــه ، وصلاح النية وإخلاص الفؤاد لله رب العالمين يرتفعان بمنزلة العمـــل الدنيـــوي الـــبحت ، فيجعلانـــه عـــبادة متقبلة ، وخبث النية يهبط بالطاعات ، فيقلبها إلى معاصي شائنة فلا يحظى الإنسان منها بشيء .

والمـــرء حيـــنما يسلم وجهه لله ، ويخلص نيته ، فإن حركاته وسكناته وكـــل أعماله تحتسب خطوات إلى مرضات الله ــ عز وجل ــ والإخلاص ألـــزم ما يكون في ميادين العلم والدعوة إلى الله ، ذلك أن العلم هو أشرف ما ميز الله به الإنسان ومن الزراية الشنيعة أن يسخر لعوامل الشر ، أو أن تختلط به الأهواء والفتن ، وقد أوجب الإسلام على الأستاذ والطالب جميعا أن يـــتجردا للعـــلم ، وأن يـــنظرا قبل كل شيء إلى المثل العليا والمصلحة العامة .

يقول ابن القيم :

" وقد جرت عادة الله التي لا تبدل ، وسنته التي لا تحول أن يلبس المخلص مـــن المهابـــة والنور والمحبة في قلوب الخلق ، وإقبال قلوبهم إليه ما هو بحســـب إخلاصـــه ونيته ومعاملته لربه ، ويلبس المرائي ثوبي الزور من

المقت والبغضة والمهابة ما هو اللائق به ، فالمخلص له المهابة والمحبة ، وللآخر المقت والبغضاء " [١]

٢ ـــ الحلم

ممـــا لا شـــك فيه أن هناك صلة بين ثقة الإنسان بنفسه وبين أناته مع الآخـــرين ، وتجاوزه عن أخطائهم ، فالرجل الكريم حقا كلما حلق في آفاق الكمـــال اتسع صدره ، وامتد حلمه ، وعذر الناس من أنفسهم ، والتمس لهم المبررات في أخطائهم وتجاوزاتهم .

وقــد خطب النبي ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ خطبة في أصحابه عصر يوم من الأيام فكان مما قال :

" إن بنى آدم خلقوا على طبقات شتى "

ألا وإن مـــنهم الـــبطيء الغضب سريع الفئ ، والسريع الغضب سريع الفئ ، والبطئ الغضب بطئ الفئ فتلك بتلك .

ألا وإن مـــنهم الـــفئ سريع الغضب ، ألا وخيرهم بطئ الغضب سريع الـــفئ ، وشـــرهم ســـريع الغضب بطئ الفئ ، ألا وإن منهم حسن القضاء حسن الطلب ، ومنهم سئ القضاء وحسن الطلب ، ومنهم سئ الطلب حسن القضـــاء فتـــلك فتلك ، ألا وإن منهم سئ القضاء سئ الطلب ، ألا وخيرهم الحسن القضاء الحسن الطلب ، وشرهم سئ القضاء سئ الطلب ..

ألا وإن الغضـــب جمرة في قلب ابن آدم ، أما رأيتم إلى حمرة عينيه ، وانتفاخ أوداجه ، فمن أحس بشيء من ذلك فليلصق بالأرض " [٢]

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين للإمام ابن قيم الجوزية ٢٠٠/٤ ـ ط مكتبة الكليات الأزهرية ـ القاهرة وينظر خلق المسلم ص ٦٧ وما بعدها للشيخ محمد الغزالي ـ دار الكتب الحديثة ـ مصر .

(٢) رواه الترمذي

إن الحلم والرفق أعظم علاج للتعصب والغلو والتشدد وبه تنقاد القلوب وتصفوا النفوس .

قال تعالى مخاطباً رسوله ــ صلى الله عليه وسلم :

" فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين " [١]

إن الإنسان المتزن هو الذي يستقبل عثرات الآخرين وزلاتهم برفق وأناة ، فلا يثور ولا يغضب ، وإن غضب فإنه يكتم غضبه دون مشقة أو تعب ، لأنه تعود على التحلم وكظم الغيظ حتى أصبح حليما، وهو دليل على كمال العقل وسيطرته على الإنسان،وانكسار قوة الغضب، وخضوعها للعقل .

ومن المعلوم بالضرورة أن الكمال لله ــ سبحانه ــ وأن النقص من طبيعة البشر ، لذا ينبغي على الإنسان أن يتوقع الخطأ والزلل من الآخرين فإن هو عالج الأمر بحكم ورفق وهدوء فقد نزع فتيل الشقاق والنزاع .

روى أن الأشج وفد على النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ فأناخ راحلته ثم عقلها ، وطرح ثوبين كانا عليه وأخرج من العيبة ثوبين حسنين فلبسهما ، ورسول الله يرى ما يصنع ، ثم أقبل يمشي إلى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ:" إن فيك يا اشج خلقين يحبهما الله ورسوله " ، قال ما هي يا رسول الله ؟ قال : الحلم والأناة ، فقال : خلقان تخلقتهما أو خلقان جبلت عليهما ؟ فقال : " بل خلقان جبلك الله عليهما " ، فقال : الحمد لله الذي جبلني على خلقين يحبهما الله ورسوله "[٢]

---

(١) آل عمران الآية ١٥٩ ينظر كتاب : أمسك عليك هذا ١٠٤ وما بعدها .
(٢) البخاري ومسلم

ويحــكى أن سفيان الثوري وأبو خزيمة اليربوعي والفضيل بن عياض اجــتمعوا ، فتذاكروا الزهد ، فأجمعوا على أن أفضل الأعمال : الحلم عند الغضــب ، والصــبر عند الجزع ، وقال بعضهم : " شتمت فلانا من أهل البصــرة فحكم على فاستبعدني بها زمانا ، وقال الحسن " اطلبوا العلــم وزينوه بالوقار والحلم "[١]

هــذا هــو المنهج الذي سار عليه صحابة رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ والسلف الصالح ــ رضوان الله عليهم أجمعين .

٣ ــ مراعاة الأخوة في الله

أن المتشددين والمتعصبين هم في الحقيقة أخوة لنا ، وقد وقعوا فريسة لإتــباع آراء معينة ، وتشبثوا بها دون بحث أو نظر ، أو تمييز بين التقليد المحمود والمذموم .

ومــن هنا : يجب علاج هذه الظاهرة بروح الأخوة التي توطد العلاقة بيــن أفراد المجتمع المسلم ، وهذه الأخوة هي روح الإيمان الحي ، ولباب المشاعر الرقيقة التي يكنها المسلم لإخوانه .

ولقــد جاء الشرع بإقامة بنيان هذه الأخوة الإسلامية بين المؤمنين وبيّن فضلها وأهميتها ، ونهى عن التباعض والتدابر والتهاجر ، وسائر الأسباب التي تورث الضغينة والبغضاء .

إن قضــية التعصــب تحــتاج إلى رقة المعاملة ، واللطف في الكلام ، وعدم التهكم أو السخرية من الآخرين .

ذلــك أن الأسلوب ا لســاخر يعــد لوناً من ألوان الحرب النفسية لــلمعالج ، فالمــرء يحــترم من يحترم فكره ، ويقومه بأدب ، وينفر ممن

---

(١) إحياء علوم الدين للإمام أبي حامد الغزالي ٢٥٩/٣ دار قتيبة للطباعة والنشر ١٩٩٢

يســخر مــنه ، ويصم آذانه عنه ، فالنقد الساخر يولد العناد والنفور ، وهو حاجـز يحـول بين المرء وعلاجه ، ومن هنا فقد حذر الله عباده منه فقال جـل شأنه:" **يأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكون خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خير منهن** " (١)

٤ ــ التواضع

إن عـلم الإنســان مهما بلغ واتسع فهو محدود أمام ملكوت الله الواسع الشـامل لكـل ما في الوجود كلياته وجزئياته ، والإنسان يقف عاجزاً عند حدود حواسه وعقله .

إن العالم الحق لا يستبد به الغرور والإعجاب لأنه يدرك بيقين أن العلم بحر لا شطآن له ولا يصل أحد إلى قراره .

وليـس هناك من أحاط بكل شيء علماً إلا الله ــ تعالى ــ أما الإنسان فهـو يعرف شيئاً وتغيب عنه أشياء ويعرف اليوم ما كان يجهله بالأمس ، ويعرف الظاهر دون الباطن ، والحاضر دون المستقبل .

وإذا رزق العـالم التواضـع وقف عند حده ، وأنصف غيره ، وعرف حقه ، ولم يتطاول على الناس بالإدعاء الباطل (٢)

وقـد جاء الحديث عن أبي هريرة أن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال : " إذا سمعت الرجل يقول هلك الناس فهو أهلكهم " (٣)

ليـس مـن حـق العالم ــ مهما كان علمه ــ أن يزدري الآخرين أو يحـتقرهم أو يـترفع عـن مجالستهم ، إن هذا يؤدى إلى النفور والتباعد ، ويولد البغضاء والكراهية .

---

(١) سورة الحجرات الآية ١١ ، ينظر : الغلو في الدين ص ٢١١ ، ٢١٢ .
(٢) الرسول والعلم ص ٦٥ وما بعدها د. يوسف القرضاوي - دار الصحوة ١٩٨٤م .
(٣) رواه البخاري في الأدب المفرد

ومـــن هـــنا : فأنـــه يجب على من يعالج الغالين والمتعصبين أن يكون متواضعاً يحنو عليهم ولا يعنفهم ولا يحتقرهم ، فإن ذلك أدعى إلى مودتهم وانشراح صدورهم .

حـــكى الأصمعي ــ رحمه الله ــ قال : قال لي الرشيد : يا أبا عبد الله أنـــت أعلم منا ونحن أعقل منك ، فلا تعلمنا في ملأ ولا تسرع إلى تذكيرنا في خلا ، واتركنا حتى نبتدئك بالسؤال ، فإذا بلغت الجواب قدر الاستحقاق فـــلا تـــزد إلا أن نستدعي ذلك منك ، وانظر إلى ما هو ألطف في التأديب وأتصف في التعليم وابلغ بأوجز لفظ غاية التقويم [١]

وقـــال بعـــض السلف : " من تكبر بعلمه وترفع وضعه الله به ، ومن تواضع بعلمه رفعه الله به " [٢]

قيل لأبي بكر الباقلاني : " كلامك أفضل من كلام أبي الحسن الشعري وأزين من كلامه أيضاً ، فقال : أن افضل أحوالي أن افهم كلام أبي الحسن ــ رحمه الله ــ " [٣]

٥ ــ التعاون في المتفق عليه والتسامح في المختلف فيه

إن بعـــض الـــناس ــ للأســـف ــ يركزون تركيزاً شديداً على الأمور الخلافية ، ويضخمونها حتى تأكل جهودهم وأوقاتهم ، والتي يجب أن توجه إلى بناء ما تداعى من البنيان الثقافي والحضاري للأمة الإسلامية .

إن الواجـــب عـــليهم أن يركـــزوا على مواطن الاتفاق قبل كل شيء ، والمـــتفق عـــليه لـيـــس بالهين ولا القليل ، بل إنه يحتاج منا إلى جهود لا تتوقف ، وطاقات بناءة ، وعقول ذكية .

---

(١) أدب الدنيا والدين ص ٩٥ لأبي الحسن الماوردي ط ١ ١٤٠١ هـ ١٩٨٧م تعليق محمد كريم راجح .
(٢) المرجع السابق ص ٨٣ .
(٣) نقلا عن كتاب من أجل حوار لا يفسد للود قضية ص ٨٦ ، ٨٧ د. محمود محمد عمارة ط ١ ١٤٢١ هـ ـ ٢٠٠٠م ـ مكتبة الإيمان بالمنصورة .

فمـــثلاً : ألســـنا متفقين ــ معاشر المسلمين ــ على الإيمان بالله الواحد الأحد ، الذي لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ؟

ألسنا متفقين على أن الله ــ تعالى ــ متصف بكل كمال ، منزه عن كل نقص ؟

ألســـنا متفقين على كل ما وصف به القرآن رب العزة ــ جل وعلا ــ من الأسماء الحسنى ؟

ألسنا متفقين على أن القرآن كلام الله ؟

ألسنا متفقين على الإيمان بالدار الآخرة ، وعدالة الجزاء فيها ، وسوق الناس إما إلى جنة أو نار ؟

ألسنا متفقين على دعائم الإيمان الست :

الإيمان بالله ــ تعالى ــ .

الإيمان بالملائكة

الإيمان بالكتب

الإيمان بالرسل

الإيمان باليوم الآخر

الإيمان بالقدر خيره وشره ؟

ألسنا متفقين على أن الإلحاد أعظم خطر يهدد الأمة الإسلامية ؟

ألسنا متفقين على أركان الإسلام العملية ؟

ألســـنا متفقين على مكارم الأخلاق التي بعث الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ ليتمها ، والتي كانت سيرته تجسيداً حياً لها ؟

ألســـنا متفقين على أن الشيوعية تحارب العقيدة الإسلامية ، وأن هناك غزواً موجها إلى دين هذه الأمة وتراثها ؟ وأن القوى العلمانية تبذل الجهود المستميته لتشويه صورة الإسلام .

الكـــثير والكثير من القضايا الأساسية التي تتفق عليها الأمة الإسلامية ، والتي لا يتسع المجال لذكرها ، فلماذا لا نتعاون على ترسيخها وإيضاحها ؟ لمـــاذا نركـــز ـــ فقط ـــ على بعض الخلافات الجزئية والأمور الفرعية ، ســـواء فـــي العقيدة أو الفقه ؟ ونقيم حولها معارك لا تنتهي ، ونبدد الجهود والطاقات في تصديع بنيان الأمة وكيانها ؟ ؟ !!

لمـــاذا لا يتناســـى المسلمون الخلافات الجزئية ـــ سواء في العقيدة أو الفقـــه ـــ لتلتـــئم صـــفوفهم ، وتـــتوحد جبهتهم ؟ أليس من العيب أن تقوم المعـــارك الضارية حول التأويل والتفويض وأفعال العباد ، وخلق القرآن ، ورؤيـــة الله تعـــالى ـــ في الآخرة ، والاستواء ، وغيرها من المسائل التي يضيع فيها الوقت ، ويبدد فيها الباحث جهده [١]

إن مســـائل العقيـــدة فيهـــا الجـــليل الخطير ، الذي يترتب عليه الكفر والإيمان ، والهدى والضلال ، وفي نفس الوقت فيها الدقيق اليسير الذي لا يـــترتب عـــليه مـــثل ذلك ، وهذا هو منهج السلف الصالح ـــ رضوان الله عـــليهم ـــ : الـــتزام الأدب ، وعدم تهويل ولا تهوين الأمور ، فلم تتشاحن النفوس ، ولم تتفرق القلوب بسبب الأمور الدقيقة الخفية ؟ [٢]

يقول ابن تيمية :

" والخطأ المغفور في الاجتهاد هو في نوعي المسائل الخبرية والعملية ...

كمـــن اعـــتقد ثبوت شيء لدلالة آية أو حديث وكان لذلك ما يعارضه ويـــبين المـــراد ولم يعرفه ، مثل من اعتقد أن الذبيح إسحاق لحديث اعتقد ثبوته ،أو اعتقد أن الله لا يرى لقوله تعالى " **لا تدركه الأبصار** " [٣] ولقوله

---

(١) الصحوة الإسلامية ص ١٤٥ وما بعدها .
(٢) ظاهرة الغلو في الدين ص ١٧٩ .
(٣) سورة الأنعام الآية ١٠٣ .

" **ومـــا كـــان لبشـــر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب** " [١] كما احتجت عائشة بهاتين الآيتين على انتفاء الرؤية في حق النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ ، وإنما يدلان بطريق العموم .

وكمـــا نقل عن بعض التابعين أن الله لا يرى ، وفسروا قوله : " **وجوه يومـــئذ ناضرة إلى ربها ناظرة** " [٢] بأنها تنتظر ثواب ربها ، كما نقل عن مجـــاهد وأبـــي صـــالح ، أو مـــن اعتقد أن الميت لا يعذب ببكاء الحي ، لاعـــتقاده أن قوله تعالى " **ولا تزر وازرة وزر أخرى** " [٣] يدل على ذلك ، وأن ذلـــك يقـــدم عـــلى رواية الراوي ؛ لأن السمع يغلط ، كما اعتقد بذلك طائفة من السلف والخلف " [٤]

ويقول ابن تيمية أيضا :

" وإذا كان المسلم متأولاً في القتال أو التكفير لم يكفر بذلك ، كما قال عمر بـــن الخطاب لحاطب ابن أبي بلتعه : يا رسول الله دعنى أضرب عنق هذا المنافق .

فقال النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ :" إنه شهد بدراً ، وما يدريك لعل الله قـــد أطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ؟ " وهذا فـــي الصـــحيحين . وكذلك ثبت في الصحيحين عن أسامة بن زيد أنه قتل رجـــلا بعد ما قال : لا إله إلا الله ، وعظّم النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ ذلك لما أخبروه وقال : يا أسامة اقتلته بعدما قال : لا إله إلا الله ؟ " وكرر ذلك عليه حتى قال أسامة : تمنيت أني لم أكن أسلمت إلا يومئذ ، ومع هذا لم يوجب عليه قوداً ولا دية ولا كفارة ، لأنه كان متأولا ، ظن جواز قتل

---

(١) سورة الشورى الآية ٥١ .
(٢) سورة القيامة الآية ٢١ ، ٢٢ .
(٣) سورة فاطر الآية ١٨ .
(٤) الفتاوي لابن تيمية ٣٢/٢ : ٣٦ .

ذلك القائل لظنه أنه قالها تعوذًا (١)

إننا نود أن نقول : إنه من المؤسف أن يكون هناك تركيز واضح على الأمور الخلافية في العقيدة والفقه ، والخطأ فيها يدور بين الأجر والأجرين في الوقت الذي تضيع فيه الأمور المتفق عليها .

إن مشكلة المسلمين اليوم ليست فيمن يقول بتأويل آيات الصفات وأحاديثها ، بل المشكلة فيمن ينكر الذات والصفات .

وليست المشكلة فيمن يؤول الاستواء ، بل فيمن يجحد العرش ورب العرش .

مشكلة المسلمين ليست فيمن يجهر بالبسملة أو يخفضها ، ولا فيمن يرسل يديه أو يقبضها ، أو يرفع يديه عند الركوع أو لا يرفعها ، المشكلة فيمن لا ينحني لله راكعاً ، ولا يخفض جبهته لله طوال حياته .

أن كل ما ليس قطعيا من الأحكام هو أمر قابل للاجتهاد ، والأمر القابل للاجتهاد ، قابل للاختلاف ، فالذي لا يقبل الاجتهاد هو الأمور القطعية ، إنها تجسم الوحدة الفكرية والشعورية والعملية للأمة ، ومن المعلوم أن هذه القطعيات تمثل مساحة غير قليلة من الأحكام العملية ، ومعظم الأحكام تقع في منطقة الظنيات القابلة للاجتهاد ، ولا ريب أن هذه رحمة من الله — تعالى — بعباده ، وتوسعة عليهم ، ولو شاء الله — سبحانه — لأغلق علينا باب الاجتهاد كله بالنص على جميع الأحكام والمسائل ؛ لكنه سبحانه رحمة بنا وتوسعة علينا سكت عن أشياء كثيرة — من غير نسيان — فما كان ربنا نسياً

---

(١) الفتاوى ٣/٢٨٣ .

وإذا كـــان من حقي أن اجتهد في فهم النص فلابد أن أعطى غيري هذا الحـــق ، ومادام من حق غيري أن يجتهد ، فمن شأن الأمور الاجتهادية أن تختلف فيها الآراء والأفهام وإلا خرجت عن مجال الاجتهاد [١]

إنـــه لمن الظلم البين أن نتعامل مع صاحب هفوة أو اجتهاد خاطئ بكل قسوة ، ثم نتغافل عما قدمه من أعمال جليلة ، ومواقف جريئة ، ومصنفات نافعة ، ومن الظلم كذلك إغفال بحر حسناته عند ذكر هفواته وزلاته [٢]

إن من الواجب على المسلم إعطاء كل ذي حق حقه ، والأصل في هذه القاعدة قول الله ــ تعالى ــ : " **يآيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجر منكم شنئان قوم على ألا تعدلوا أعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون** " [٣]

وقوله عز وجل : " **ولا تبخسوا الناس أشياءهم** " [٤]

وقوله سبحانه : " **وإذا قلتم فاعدلوا** " [٥]

أن هـــذا أمـــر واضح من الله ــ سبحانه ــ بالعدل مع جميع الناس في الأقوال والأفعال .

---

(١) الصحوة ص ١٦٠ .
(٢) كيف نتعامل مع التراث ص ٢٥١ د. يوسف القرضاوي ط ١
(٣) سورة المائدة الآية ٨ .
(٤) سورة هود الآية ٨٥ .
(٥) سورة الأنعام الآية ١٥٢ .

المبحث الرابع

أثر التعصب المذهبي على وحدة الأمة

إن الخلافات التي نتجت عن التعصب السيئ لم تفد الإسلام في شيء ، بـــل نخرت عظامه ، وأضعفت مقاومته أمام الحاقدين عليه والمتربصين له فلم يندك خنجر الفرقة في صدر الإسلام بأيدي المسلمين ، ولكن بأيدي قوم ادعـــو الإســـلام ، ليصـــلوا إلى هـــذه الغاية المنشودة عندهم ، فالمجوسية والســـبئية والشعوبية قد لعبت دوراً هاماً ، وبمهارة كاملة حين بذرت بذور الخـــلاف بيـــن المســـلمين إلى يومـــنا هذا ، وكلما مرت الأيام امتدت هذه الجذور للأسف الشديد إلى الأجيال .

وفـــي أيام الفاطميين قام اليهود بدور هائل من أمثال ابن كلس ونشتكين الـــدرزي فـــي محاولـــة تفتيت العقيدة الإسلامية وتمزيق وحدة المسلمين ، ومكـــنوا لبعض الخونة من تولى الوزارة والتعلق بها حتى لم يجد بعضهم غضاضـــة فـــي أن يستعين على خصومة من المسلمين بأعداء الإسلام من الصـــليبين ، الذين اغتصبوا ديار الإسلام في هذا الوقت ، وكان أول نتيجة مؤسفة ومحزنة لهذه الخلافات الطاحنة هي ضياع بلاد الأندلس [١]

إنـــنا نريد أن نوضح هنا : أن الاستعمار يشجع على الفرقة ، ويستغل هـــذه الفرقة بين المسلمين أسوأ استغلال ، وذلك لتظل سيادته نافذة في بقاع العالم الإسلامي شرقه وغربه .

والعجيـــب أنهـــم يوسعون في شقة هذا الخلاف حتى بين أبناء الوطن الواحد ، فقد فرقوا بين السني والشيعي في العراق وفي لبنان ، وبين السني والإباضـــي في تونس وفي الجزائر ، ومما لا شك فيه أن ضعف المسلمين

---

(١) إسلام بلا مذاهب ص ٥٢٤ د. مصطفى الشكعة ط ١٠ - الدار المصرية اللبنانية ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م .

يمكـن للمسـتعمرين ــ مـن أعداء الإسلام ــ أن يثبتوا أقدامهم في ديار المسـلمين ، فتسـلب أموالهـم وأراضيهم ويسقطون بلدة إثر بلدة كأوراق الخريف في يوم عاصف [١] ولننظر ماذا فعل جيش الاحتلال الأمريكي بعد أن فهـم طبيعة الخلاف الحاد والمزمن بين السنة والشيعة ؟ لقد عمل على تكـريس هذا الخلاف واستثماره وتعميقه ، هادفاً من وراء ذلك إلى إشعال الحـرب الأهـلية بيـن السنة والشيعة ، حرب يُفنى فيها العراقيون أنفسهم بأنفسـهم ، بينما يجلس المحتل والمعتدى هانئاً سعيداً ، يستغل مقدرات هذه البـلد المسـلم وثرواته ، ويعلن أنه سيبقى في العراق إلى أجل غير معلوم، لأن العـراقيون يتقاتلون ، ولا يستطيعون إدارة بلادهم ، وبالطبع لن ينسوا أن يتقاضـوا مكافـآتهم ومرتـباتهم من ميزانية البلد المحتل باعتبار أنهم المتصرف الأول فيها [٢]

إن هـذا كلـه ــ بلا شك ــ ناتج عن الفرقة والتباغض،والتشاحن بين المسلمين،الذي يتيح لأعدائه أن يمزقوه من الداخل ، ويوقفوا مسيرته .

يقول الشيخ أحمد كفتارو :

" المذهبية [٣]سبب نكبة المسلمين عبر حوالي ألف سنة وحتى الآن ، وما لم نـرجع إلى إسـلام النـبي ــ صـلى الله عليه وسلم ــ وإسلام تلامذته ، ومدرسـته الـتي ربـاهم فيها ــ الإسلام الواحد ــ فسنبقى كما نحن ، بل سنزداد تخلفا وتقهقراً إلى الوراء ..

---

(١) المرجع السابق ص ٥٢٥ .

(٢) مجلة الأزهر العدد (٧٦) ١٤٢٤ هـ .

(٣) واضح أن الشيخ كفتارو لا يقصد بالمذهبية المدارس الفقهية أو الفكرية ، التي تتنبل من معين واحد ، طالما أن مرجع الجميع كتاب الله وسنة رسوله - صلى الله عليه وسلم - وطالما أن الخلاف لا يمس أصلا من أصول الدين ، فلا غضاضة في ذلك ، إنما المقصود هنا هو : احتكار الحق والصواب ، والطعن والانتقاص من الآخرين ، ورميهم بالفسق والضلال ، وهذا - بلا شك - ناتج عن الحماقة والتعصب لبعض الأئمة ، والذين يبرأون من هذا التعصب براءة الذئب من دم ابن يعقوب .

إنـــنا نحتاج إلى إنشاء جيل جديد آخر من علماء الإسلام ، الذين يبنون القضـــايا عـــلى إسلام القرآن ، بعيداً عن التعصب المذهبي وأخطاء رجال الدين في العصور المختلفة .

ويضيف الشيخ كفتاور قائلاً :

أما أن نتعصب لرأى شخص من سلفنا الصالح ــ مع إخلاصهم وعلمهم ــ فهذا خطأ في فهم الإسلام ؛ لأن أصحاب المذهب أنفسهم لم يسموا طريقتهم بالمذهــبية ، فكـــان كل واحد من المجتهدين يقول : إذا صح الحديث فهو مذهبي ، أي أنا مذهبي طريقة النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ نحن نحتاج إلى إسلام قرآني ، أو إلى إسلام بلا تعصب مذهبي ، مع احترامنا لكل من سبقنا من الأئمة (١) .

إن مـــن الخيانـــة لديننا وأمتنا أن نغرقها في بحر الخلاف والجدل في فـــرعيات الفقـــه أو عـــلى هامش العقيدة ، في حين ننسى مشكلات الأمة ومآسيها ، وهمومها الكبرى ، إننا نجد العالم اليوم ــ وعلى جميع الأصعدة ــ يتقارب بعضه من بعض على الرغم من الاختلاف الديني ، والاختلاف الايدلوجي ، والاختلاف القومي واللغوي والوطني والسياسي .

فهـــذه هـــي المســـيحية ــ وهي أشبه ما تكون بأديان متباينة ــ يقترب بعضها من بعض ، ويتعاون بعضها مع بعض .

وهـــذه هي أوربا التي مزقتها الحروب والصراعات والنزاعات القومية والاقـــليمية والسياســـية والايدلوجيـــة ، تتقارب حتى توشك أن تكون دولة واحدة ، تذوب بين أقطارها الفواصل والحدود ، ولقد كان يفصل بين أوربا

---

(١) مجلة العالم ص ٣٣ وما بعدها العدد ٢١٤ ـ ١٩٨٨م . ونود أن نشير هنا إلى أن مصطلح " رجال الدين " الذي أورده الشيخ كفتارو غير دقيق فالإسلام ليس فيه رجال دين ورجال دنيا . ومن الأفضل أن يقال : علماء الإسلام . ذلك أن هذا المصطلح ـ رجال الدين ـ أطلق على رجال الدين المسيحي ، أولئك الذين ثار ضدهم العلماء في ذلك الوقت وكانت هذه الثورة سبباً أساسياً ـ في ظهور العلمانية .

الشـــرقية والغربية ستار حديدي ، واليوم يكاد يرق ويرق حتى يتمزق في النهاية [١]

إننا في أمس الحاجة إلى التئام الصفوف ، وتأليف القلوب ، ولم الشتات وفهـــم روح الديـــن الحنيف ، وليس هناك من سبيل إلى ذلك إلا بالبعد عن النعرات والعصبيات ، التي اذكاها الاستعمار .

والإسلام كان ــ وما يزال ــ هدفا للتهجم من الحاقدين شرقاً وغرباً .

إن الخلاف القائم على العصبية ــ كما أسلفنا ــ يستهلك الوقت والجهد ، ومـــا لـــم يوضـــع حد لتخفيف حدة هذا الخلاف ، فإنه لا يرجى أبداً أن تتحقق وحدة الأمة الإسلامية على الصورة المرجوة .

وكيـــف يمكن أن نحقق هذه الوحدة بين أهل القبلة ، ونحن لم نترفع بعد عـــن السب والشتم ، والسفاسف والاتهام ، وعدم الإحساس بفحش المجازفة بـــرمي المســـلم بالشرك والكفر والفسوق والبدع فيما يتنازعه قولان ، أو يتعاوره دليلان ؟ إن هذا الأمر يلهب حريقاً مدمرة ، لا يسفر في النهاية إلا عن تفتيت وتمزيق المسلمين ، واستئصال شأفتهم .

إن الإســـلام قد حفظ حقوق الناس في حرية التفكير والتدين والتمذهب شريطه ألا يفتت هذا وحدة الأمة أو ينشر الفتنة ، أو يفرق بين الوالد وولده ، أو يـــوزع القـــرية أو المدينة إلى شيع من أجل جزئيات وهامشيات ــ لا تخـــرج فاعـــليها مـــن صفوف الصالحين فضلا عن صفوف أهل القبلة ــ فلحساب من هذا الاضطراب ؟ !!

لحساب من الطعن في علماء الإسلام وتجريحهم وغمزهم ولمزهم [٢]

---

(١) الصحوة ص ١٣٥ وما بعدها .

(٢) راجع كتاب الفروع الخلافية للشيخ محمد زكي ابراهيم ط ١ ١٩٩٥ مطبوعات العشيرة المحمدية

ومن يبقى للأمة إذا طعن في علمائها ومفكريها ؟

هـــذا هو ابن تيمية ، الذي نقد فخر الدين الرازي نقداً شديدا ، يقول في حقه بكل أدب .

" ... وليـــس هـــذا تعمداً منه لنصر الباطل ، بل يقول بحسب ما توافقه الأدلة العقلية في نظره وبحثه ، فإذا وجد في المعقول بحسب نظره ما يقدح به في كلام الفلاسفة قدح به ؛ فإن من شأنه البحث المطلق بحسب ما يظهر له ، فهو يقدح في كلام هؤلاء [١]

كيف إذن يتغنى البعض بالقدح في علماء الأمة وتجريحهم ، واللجوء إلى بعض العبارات المتعلقة بالذات ، فينال منها تحقيرا وتسفيها وازدراء [٢]

---

(١) المقصود بهؤلاء : الكرامية والجهمية ومن حذا حذوهم

(٢) بعض المتعصبين علق على قضية نزول عيسى بن مريم ما نصه :
" ... هذا صريح في أن عيسى - عليه السلام - يحكم لشرعنا وبمقتضى الكتاب والسنة ، لا بغيرها من الانجيل أو الفقه الحنفي " !
وقد علق على هذا الكلام الدكتور سعيد رمضان البوطي قائلا : إنك لترى بصريح العبارة من خلال سخريته بالفقه الحنفي أنه غير الشريعة الإسلامية ، وإنما هو شيء آخر ، كالذي يسمى اليوم بالتوراة والانجيل !
فأبو حنيفة - رحمه الله - إنما دعا الناس - بزعمه - إلى نبذ الشريعة الإسلامية ، والأخذ بفقهه بدلا منها !!
فهل من مسلم يتمتع بشيء من تقوى الله - تعالى - يتفوه بهذا الكلام الظالم في حق سلف هذه الأمة وإمام من أئمة المسلمين ؟!
وإنا لنعلم أن هذا الرجل ، أو ناشر الكتاب الذي ورد فيه الافتراء العجيب - وقد تلقى مذكرات كثيرة من علماء المسلمين تنبه إلى ضرورة شطب هذا اللغو - فما اصاخ واحد منهما إلى التذكير بهذا الحق ، وأبى كل منهما إلا أن يجعل من نفسه مطية ذلولا للعصبية الشنعاء .
فالله المستعان أن ينتصر لعباده الذين ما آلوا جهداً في استخراج أحكام الشريعة الإسلامية من الكتاب والسنة ، فكانت اجتهاداتهم هي حكم الله - تعالى -، في حقهم ، وحق كل من استرشدوا بعلمهم ممن لم يسعهم إلا تقليد الأئمة وأتباعهم ، يستوى في ذلك ما اصابوا فيه من تلك الاجتهادات وما أخطأوا ، والله المستعان أن يعافينا من الضغائن والأحقاد تجاه سائر إخواننا المسلمين ، فضلا عن السلف الصالح وأئمة المسلمين ، كبرى اليقينات الكونية ص ٣٢٣ .

إن مـــن المحزن والمؤسف أن نجد بين المشتغلين بالدعوة إلى الله من يشهر سيف الذم والتجريح لكل من يخالفه في فهمه واستنباطه ، متهماً إياه باتباع الهوى أو الابتداع والانحراف ، وربما النفاق والفسوق .

لقــد اســتعر الخلاف ، وتنافرت القلوب ، وكثر الشقاق بين أبناء الأمة الواحــدة ، فتجرأت علينا جحافل الشيطان من كل صوب وحدب ، أحداث تلو الأحداث ، مذابح في فلسطين والبوسنة والهرسك وكوسوفو والشيشان ، وتجويـــع في الصومال ، ووقيعة بين أبناء السودان .. وأخيراً كانت الطامة في العراق .

والحقيقـــة أن الأمر لم يقع فجأة ، ولم تباغتنا به الأيام ، بل هو الهزال والضعف الذي كان نتيجة للتمزق والتشرذم الذي أصابنا .

(=) ونحن من جانبنا نود أن يلتزم إخواننا الفضلاء في كتابتهم بالأدب تجاه العلماء ، والاعتراف بفضلهم وتوقيرهم ، ذلك إن إعجاب المرء برأيه إلى الحد الذي نجعله يزدري بالآخرين يعد داء من أمراض النفس الخطيرة ، التي تمثل في الواقع انحرافا خلقياً ، قد يجنح بالإنسان عن سبيل الحق .

وهذا هو ابن تيمية يقول عن الإمام أبي حنيفة النعمان ـ رحمهما الله ـ تعالى ـ :

" ومن ظن بأبي حنيفة أو غيره من أئمة المسلمين أنهم يتعمدون مخالفة الحديث الصحيح لقياس أو غيره فقد أخطأ عليهم " الفتاوي ٣٠٤/٢٠ .

ويقول الشافعي : " الناس عيال في الفقه على أبي حنيفة " إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم ٧٧/١ مكتبة الكليات الأزهرية ـ مصر .

المبحث الخامس

العمل على وحدة الأمة

ممـــا لا شـــك فيـــه أن معظم المسلمين الآن أو لا أبالغ إذا قلت إن كل المســـلمين قـــد أدركـــوا أن أعداءهـــم قد بيتوا النيات على تقويض الأمة والتهامها والقضاء عليها — كما أوضحنا — .
فماذا نحن فاعلون ؟

بدايـــة لابـــد أن نعرف أن العمل على وحدة الأمة الإسلامية شرف ما بعده شرف ، ويجب على العرب قبل غيرهم من الأجناس التي تكوّن الأمة الإســـلامية الكـــبرى أن يدركوا هذه الحقيقة وأن يربطوا ولاءهم بدينهم لا بجنسيتهم ، وأن يستضيئوا في نهضتهم أولاً بأخوة العقيدة التي لا يحصرها مكـــان ، ولا يحدها جنس ، وأن المسلم أخو المسلم لا يخذله ولا يسلمه ، وأن المســـلم إذا استبيح دمه على شاطئ المحيط الهادي في الفلبين يجب أن يتحرك له أخوه على شاطئ الأطلسي في المغرب والسنغال ونيجيريا [١]

إن حالـــة الضعف التي تمر بها الأمة — نتيجة لما حدث لها من تمزق — أطمـــع فيها قوى البطش والقهر المعاديه التي تتربص لها ليل نهار ، بل وتحـــاول هذه القوى بكل الإمكانات المتاحة أن توسع هوة الخلاف والشقاق حتى تتقطع جميع الأوصال بين أبناء الأمة الواحدة .

وليس أدل على ذلك مما بثته القناة التليفزيونية المعروفة في لندن والتي تســـمى " المســـتقلة " حيـــث قامت بعمل مناظرة رباعية الأشخاص ثنائية الأطـــراف بيـــن الشـــيعة والسنة ، وكان المتناظرون — للأسف الشديد — يـــبحث كـــل منهم عن الخطأ والباطل عند الطرف الآخر ، وقد أعدت هذه

---

(١) راجع : سر تأخر العرب والمسلمين ص ١٧٥ وما بعدها للشيخ محمد الغزالي .

المناظرة بخبث ومكر ودهاء ، الهدف منها هو: بيان أن الشيعة خصوم ألداء لأهـل السـنة ، وجعل أهل السنة خصوماً ألداء للشيعة ، وما دار في هذا الإطار على تلك القناة هو فتيل ملتهب للوحدة الإسلامية ، يؤدي في النهاية إلى فتـنة عميـاء ، الفـائدة المـرجوة منها هو: إثارة النعرة العصبية بين المنتسبين إلى الشيعة والسنة ، ومحصلة هذا اللغو الفارغ الذي أقدمت عليه هـذه المناظرة أن الجميع ـــ شيعة وسنه ـــ مارقون عن الدين ، وهذا من شأنه إحداث بلبلة بين المسلمين وإعطاء خصوم الأمة الفرصة السانحة لأن يـتهموا الجميـع بالضلال ، وكفاهم بعد ذلك أن يقولوا : وشهد شاهد من أهـلها ، ليجعلوا من ذلك الهذيان حقيقة يزمرون ويطبلون لها ، ناهيك بعد ذلـك عـن التصـدع الخطير الذي يصيب الأمة من الداخل ، ليتحول هذا الصـراع الفكري ـــ الذي قوامه الكلمة ـــ إلى صراع مسلح قوامه القنابل والصواريخ !! (١)

ومـن هنا فإني اقترح وبإلحاح شديد إلى وضع أسس هامة لبناء وحدة إسـلامية من الداخل ، حتى نستطيع من خلالها مواجهة أي تحد مهما كان نوعه أو جنسه .

وأهم هذه الأسس ما يلي :

١ ـــ الـتركيز عـلى عقيدة التوحيد ، ذلك أن هذه العقيدة قادرة على أن تذيـب كـل الفوارق والجنسيات واللغات ، كما أن تلك العقيدة بما يتـبعها مـن أحكام ونظم تحدد أشكال التعامل بين هذه الأمة وبين غيرها من الأمم ، وهذا كله يجعل تحقيق الوحدة بين شعوب العالم الإسلامي أمراً طبيعياً بديهياً ، ولا سيما أن غير المسلمين ينظرون

---

(١) جريدة اللواء الإسلامي العدد (١٠٩٠) ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م .

إليهم على أن لهم من التجانس والتميز ما يجعلهم جميعا في خندق واحد .

والعـــالم الغـــربي يسير اليوم بسرعة مدهشة ـــ من خلال إعلامه وصـــحفه ـــ نحو اعتبار كل المسلمين ـــ مهما تكن درجة التزامهم ـــ أصوليين متطرفين [١]

٢ ـــ الوحـــدة الإســـلامية تحـــتاج إلى علماء من نوع فريد ذوى نفوس صافية ، ينظرون نظرة ثاقبة إلى واقع الأمة المرير ، الذي أصابه التشـــرذم وتقطيـــع الأواصر ، ويحلون محله الحب والتسامح بين شعوب المسلمين .

ونحـــن اليوم أكثر من أي وقت مضى في أحوج ما نكون إلى هذا الصنف من العلماء الذين يقيلون عثرة الأمة ، ويطوون الصفحات القديمة المؤلمة ، التي لم يزل الكثير يجترها ليبث الخلاف والشقاق بين طوائف المسلمين لتتقد نار الفتنة " **والفتنة أشد من القتل** " [٢]

٣ ـــ إن الوحـــدة الإســـلامية تتطـــلب التنازل عما هو هامشي وصغير ومؤقت في سبيل تحقيق ما هو أساسي وعظيم ، فليس من المعقول أن تـــثار قضايا مر عليها مئات السنين ، ثم يتعصب البعض لرأى إمام من الأئمة أو اجتهاد معين ويشطب على باقي الآراء ، ويا ليته يفعـــل ذلك فقط ، بل قد يخرج مخالفه من دائرة الإسلام ، ويشغل الأمـــة بهـــذا الشقاق ، ولا يدرى أنه يقدم هدية لأعداء الإسلام كي يعدوا الضربة القاضية للمسلمين .

٤ ـــ ليس من الصالح للإسلام والمسلمين أن نتلمس الأخطاء للبعض من

---

(١) مجلة البيان ـ لندن ـ العدد ٧٢ ـ ١٤٢٤هـ ١٩٩٤م .

(٢) سورة البقرة الآية ١٩١ .

علماء الإسلام ، سواء في القديم أو الحديث .

إن تـاريخ الإسلام زاخر بالرجال المخلصين ، وهؤلاء الرجال لهم نظـرات لهـا وزنهـا ، ولهم اجتهادات يجب أن نحترمها ، ومن الأمـور التي استقر عليها الأمر أنه لا عصمة لأحد بعد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلماذا إذن لا ننتفع بهذه الحصيلـة الـرائعة من ثقافتنا الإسلامية ونحن نقرأ هذا التراث ، لماذا نبخس الـناس أشـياءهم ؟ لمـاذا لا نعترف بالفضل لأصحابه ؟ لماذا لا نـتجاوز الخطـأ وننتفع بالصواب ؟ لماذا نتوقع العصمة من البشر ونجعـل الأخطـاء القليـلة جبالاً تتهدم فوق رؤوسهم وتأتي على ذكراهم ؟ لماذا نذهل عن جهودهم العلمية الجبارة التي خلفوها في نصرة الإسلام وردع خصومه ونفع الأمة ؟! [١]

٥ ـ يجـب أن تلـتقي الجمعيـات والمدارس الإسلامية المختلفة بصفة مسـتمرة لـلعمل على التواصل والتراحم بين أبناءها ونبذ التنافر والتدابر والقطيعة ، بحيث يكون هذا التواصل من أجل إعلاء كلمة الله ونصرة الإسلام والارتقاء بالفكر الإسلامي ، وعلى سبيـل المـثال : الأقليات الإسلامية في الدول الأوربية ، والتي تواجه في العصر الحاضر مخاطر جسيمة ، إن هذه الأقليات مهددة ومتهمة ، وخاصـة بعـد الإصدرات التي تشنها الصحف الأوربية المغرضة مـثل مجلة " الأوربية وغيرها ، التي تهدف إلى النيل من الإسلام بالدرجة الأولى .

---

(١) راجع : مشكلات في طريق الحياة الإسلامية للشيخ محمد الغزالي ص ١٢٥ ، ١٢٦ ط دار البشير ـ القاهرة ـ ١٩٨٩م .

والأقـلية دائما تعاني من نقص في القوة والنفوذ ، إلا إذا كانت هذه الأقـلية تسـتطيع استغلال الظروف ، فتنجح وتسيطر مثل الأقلية اليهوديـة فـي الغـرب وأمـريكا ، والتي استطاعت تقوية نفسها بالسـيطرة وامـتلاك الـنفوذ ، وتحول مركز الضعف عندها إلى مركز قوة .

مـن هـنا يجب النهوض بتلك الأقليات المسلمة من الداخل ، وذلك بـتوحيد عمـلها ، وتـنظيم صفوفها ، والمشاركة في صنع القرار داخـل الدولـة التي تعيش فيها ، ومن الواجب والمحتم على العالم الإسـلامي دعـم هـذه الأقليات والدفاع عن حقوقها حتى يمكنها مواجهة التحديات الراهنة [١]

٦ ـ إن الحـج إلى بيـت الله الحـرام يجمـع أصحاب الاختصاصات المتـنوعة مـن جميع أرجاء العالم الإسلامي ، فهو فرصة سانحة للقاء رجال العقيدة والفقه والفكر والسياسة والأدب وغيرها ، فلماذا لا نجعـل مـن هـذا المؤتمر الإسلامي الكبير مناخاً طيباً للوحدة الإسـلامية ؟ بحيـث يـتدارس العلماء والمفكرون مشكلات العالم الإسلامي على ضوء التعاليم الإسلامية ، واستنتاج الحلول الناجعة مـن كتاب الله الخالد وسنة نبيه المطهرة ومنهاج السلف الصالح ، وبهذا تتحقق حكمة الحج المشار إليها:" ليشهدوا منافع لهم " ، وهل هـناك أحوج من هذه المنفعة في هذا العصر ؟ التي تمسح الخلاف ، وتـرأب الصـدع ، وترتق الفتق ، وتحل المشاكل ، وتقيم الناس

---

(١) انظر مجلة الوعي الإسلامي الكويتية العدد ٤٥٧ ـ ١٤٥٧ هـ ـ ٢٠٠٣م ص ٤٥ .

عـــلى سواء الصراط ، والأمر يحتاج إلى شيء من التنظيم لإتاحة مثل هذه الفرص [١]

٧ ــ لابــد أن يعـــلم كل مسلم أن الإسلام رسالة عالمية ، وأن الخطاب الإســـلامي خطاب عالمي ، وعليه فإن الإسلام لم يأت لينحصر في زوايا معينة أو في مدارس بعينها ، وإنما جاء ليعم مشارق الأرض ومغاربها . قال تعالى :

"قل يأيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا الذي له ملك السموات والأرض لا إلـــه إلا هـــو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون " [٢]

وقال جل من قائل :

" ومـــا أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون " [٣]

وقـــال ســـبحانه : **" تـــبارك الـــذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً "** [٤]

وقال : **" إن هو إلا ذكر للعالمين "** [٥]

وقال : **" وما هو إلا ذكر للعالمين "** [٦]

إنـــه لا يمكن أن تتحقق هذه الدعوة ولا يمكن أن يعم الخير جميع الـــناس إلا إذا اتحـــدت الأمـــة وساهم كل أفرادها في تحقيق هذه

---

(١) انظر : عوامل تقوية الوحدة الإسلامية في الشعائر الدينية ص ٣١ للشيخ أحمد بن حمد الخليلي - مكتبة الضامري - سلطنة عمان .
(٢) سورة الأعراف الآية ١٥٨ .
(٣) سورة سبأ الآية ٢٨ .
(٤) سورة الفرقان الآية ١ .
(٥) سورة ص الآية ٨٧ .
(٦) سورة القلم الآية ٥٢ .

الأمـــنية الغالية ، ولا يمكن أن تتحقق بين أناس يتراشقون بالشتائم والسباب ، ويوم أن تختفي الفرقة والشحناء تصفو النفوس وتنطلق في خدمة الدعوة الإسلامية على أساس من الأخوة والتراحم .

٨ ــ لابد من الأخذ في الاعتبار قاعدة أولويات الدعوة فندع الكلام فيما اختـــلف فيـــه مادام ليس من جوهر العقيدة ، ونركز على مواطن الاتفاق ــ كما أسلفنا ــ .

٩ ــ لـــلدعاة الذين يجوبون العالم الإسلامي دور خطير في اكتشاف كل مـــا يـــنمي وجه التعاون والتكامل بين بلدان العالم الإسلامي ، ثم كتابة هذه المشكلات ونشرها ، كي تعزز معرفة المسلمين بإخوانهم ؛ لأن كـــثيراً مـــن الهموم والمشكلات لا تبث من خلال الإعلام أو الصـــحافة ، وهـــنا يأتي دور العالم المسلم الذي يزور هذه البلاد ، حيث يقوم بدور الخادم الأمين لدينه وأمته وتعريف ابناءها بعضهم بـــبعض ، ومحاولة إزالة الصعوبات والعوائق التي تعترض طريق الوحدة الإسلامية .

١٠ ــ إن الإســـلام اليـــوم يشـــغل كـــثيراً من أذهان الناس في الغرب ، والحديـــث عنه متصل لأسباب كثيرة ، وخاصة بعد أحداث الحادي عشـــر مـــن ســـبتمبر ، كـــثر الانشغال بالإسلام من قبل كثير من الهيـــئات والمؤسسات ، والبعض ــ ممن أعماهم الحقد ــ ينظرون إلى الإســـلام على أنه غول يهدد العالم ، ويخترعون له مزاعم لا أساس لها ، مستغلين تصرفات شاذة لبعض من ينتمون إلى الإسلام ــ للأسف ــ والإسلام منها براء ، ومن هنا:فقد اصبح لزاماً على علماء المسلمين أن يوجهوا رسائل مركزة إلى شعوب العالم التواقة إلى معرفة حقائق الإسلام ، وأن يستفيدوا ــ غاية الاستفادة ــ من

انشـــغال العـــالم بالإسلام والمسلمين ، ومن يدرى لعل هذه فرصة ســـانحة لـــلرد عـــلى الشـــبهات الـــتي تطرحها الأقلام المسعورة والحملات الشعواء ضد هذا الدين الحنيف ، ولن يتم هذا الأمر إلا فـــي ظل التفاهم والتوافق بين أبناء الإسلام والانطلاق من أرضية مبـــنية على الحب والإخاء بعيدة ــ كل البعد ــ عن التزمـــــــت والتناحر ، حتى لا نعطي أعداء الإسلام الفرصة للنيل منه .

١١ ــ إن الأمـــة الإسلامية يوم أن تتوحد كلمتها وتتبوأ المكانة اللائقة بها بين الأمم لن يطمع فيها الطامعون ولنْ يخترق صفوفها المتآمرون ، بـــل سيحسب لها ألف حساب ، لأنها يومئذ ستكون قويةً بربها ، قوية بإيمانها وعقيدتها .

وهذه العقيدة تجعلهم يتخلوا ــ تماماً ــ عن كل نزعات النفس التي تجـــلب العـــداوة والبغضـــاء ، وهي في نفس الوقت تزيل أسباب الشقاق والخصومات .

والأصـــل أن يظـــل الناس متفرقين ، طالما أنه لم يكن هناك قاسم مشـــترك بينهم من الاعتقاد والشعور ، وكلما ازداد فيما بينهم هذا القاسم المشترك عمقا واتساعا ازداد نسيج هذه الوحدة قوة وكمالا ، فعـــلى قـــدر ما يتوفر في الناس من قاسم مشترك يتحدون ، وعلى قدر ما يستشعرونه من خلافات في الفكر يتفرقون ويتدابرون [١]

إن الذيـــن استلبوا فلسطين لم يستلبوها من فراغ وإنما استلبوها بعد أن تـــأكدوا مـــن تمـــزيق وحدة الأمة الإسلامية ، وتقطيع أواصر الصلات بين أبناءها .

---

(١) انظر : الإسلام ملاذ لكل المجتمعات الإسلامية ص ٢٦٢ د. محمد سعيد رمضـان البوطي ط ١ ١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٤م .

إن وجود تصورات موحدة بين أبناء الأمة الإسلامية حول القضايا الإسلامية الكبرى أمر في غاية الأهمية ، وعامل هام في توحيد المسلمين .

وحول هذه القضية يقول الدكتور مراد هوفمان ـ المفكر الألماني المسلم ـ : " عندما ننظر إلى الجاليات الإسلامية في الغرب نجد أن فريقاً من المسلمين القادمين من بلدانهم الأصلية إلى الغرب ، قد تبني التصورات الغربية حتى النخاع .. وفريقاً آخر اتخذ موقفاً متشدداً رافضاً لسائر ما حوله ، ولكننا نتمسك بالطريق الوسط ، الذي يلتقي مع " دين الوسطية " ويتفق مع الانفتاح على المنجزات العلمية والتقنية ، دون الانسياق وراء تصورات منحرفة أثبتت النتائج خطأها ، وفي الإسلام الدواء الشافي لها ، سواء من حيث تعامله مع العلم والعلماء ، أم من حيث تعامله مع الأسرة والشبيبة والأطفال ، أو تعامله مع مختلف المشكلات الكبرى المعاصرة ، فضلا عن ميزته الكبيرة المتمثلة في اطمئنان معتنقيه إلى أن النصوص الملزمة بين أيديهم ، هي بعينها النصوص التي جمعها المسلمون ، قرآناً وحديثاً منذ العهد الأول ، وكان التحقيق فيها على أعلى المستويات العلمية المنهجية " (١)

ويؤكد الدكتور هوفمان أن الفرصة ـ الآن ـ متاحة أمام الإسلام ليصبح الديانة الأولى في العالم كله ، لكن هذه الفرصة تظل قابلة للضياع إذا لم نضطلع نحن المسلمون بوضع الأساس القوى لعمل تعاوني مخلص بين علماء الإسلام تكون مهمته إحداث تغيرات

---

(١) نقلا عن جريده الوعي الإسلامي الكويتية العدد ٤٥٧ ص ٤٦ .

رئيســية فــي المواقف والمداخل تبنى على أساس عقدي .. وبذلك يستعيد الإسلام مكانته الأولى في العالم .

والحقيقة أن ما أدلى به الدكتور مراد هوفمان يحتاج ــ فعلا ــ إلى بــذل الجهد بين قادة العمل الإسلامي لتوحيد الهدف المنشود حتى نــزيل تــلك الــتراكمات التي ألصقها الغرب ــ ظلماً وعدوانا ــ للإســلام والمســلمين ، وحتى نجلى صورة الإسلام السمحة التي شوهتها وسائل الإعلام الغربية في حملاتها المسعورة علــــــــى الإسلام .

١٢ ــ إن المذهــبية فــي الأمة الإسلامية ــ المبنية على التعصب ــ لا تتحطم بالقوة ولا بالقانون ، فإن هذه الوسائل لا تزيدها إلا شدة في التعصــب ، وقــوة في رد الفعل ، وإنما تتحطم المذهبية بالمعرفة والتعارف ، فبالمعرفة يفهم كل واحد ما يتمسك به الآخرون ولماذا يتمســكون به ؟ وبالتعارف يشتركون في السلوك والأداء الجماعي للعــبادات ، فيتقبل كل واحد منهم الآخر ، ويعطيه حقه ، وفي ظل الأخوة والتسامح تغيب التحديات ، ويشعر الجميع أنهم يسيرون في خط واحد ، ويهدفون إلى غاية واحدة ، ألا وهي خدمة الإسلام ، وجعل كلمة الله هي العليا، وبالتالي يرحب الجميع بضرورة الترفع عن سفاسف الأمور ، وعدم البقاء في دائرة الأمور الهامشية .

إن هــذا التعارف كفيل بتحطيم المذهبية المبنية على فكرة انحصار الحــق عــلى مؤسسة إسلامية بعينها ، والرامية إلى التشنيع على غيرها [١]

---

(١) ينظر كتاب : الشيخ علي يحيي معمر والدعوة إلى وحدة المسلمين محمد ناصر بوقحام - مكتبة الضامري - سلطنة عمان .

١٣ ــ مــن المعــلوم أن للناس على اختلاف مشاربهم روابط تجمع بينهم على أهداف محددة ، حتى اللصوص وتجار المخدرات لهم أسباب تضمن لهم وحدة العمل والتعاون لصيانة أنفسهم من المخاطر التي تحــدق بهــم ، وللأحــزاب أيضــاً مبادئ لابد من التزامها تأمينا للمصــلحة المشــتركة ، وكذلك المجتمعات والقوميات والتجمعات الأخــرى لا مندوحة لها عن حد أدنى لاستمرار التعاون والتفاهم ، ولكن لا تعدو كونها روابط صورية ، لا تمس الأعماق ، ولا بقاء لهــا إلا مع بقاء المنفعة ، والمنفعة ــ كما نعلم ــ وضع منقلب لا يســتقر عــلى حــال ، شأن اليهود ، الذين كشف الله ــ تعالى ــ أســرارهم الخفية ، يتراءون للناظر متحدين ، وقلوبهم شتى ، وقد بين لنا الحق ــ تبارك وتعالى ــ مصير الروابط الزائفة ومصيرها يــوم يحشر الخلق جميعاً للوقوف بين يدي الله ــ تعالى ــ فتتساقط الأقنعة ، وتبلى السراء فإذا " الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المــتقين " [1] وكيــف لا يــنجح هؤلاء المتحابون في الله في ذلك الموقــف المشــهود؟ ، إنهم الناجحون في ذلك الامتحان الرهيب ، إنهم حملة النور يضيئون به الطريق للمتخبطين في الظلمات ، إنهم ليســوا أمة جيل بعينه ، ولا طائفة بعينها ، أو قوم يجتمعون على فضــائل لأمد محدود ، ثم ينفضون فتتفرق بهم السبل ؛ لكنهم أمة العقيــدة ، الــتي ينــتظم في سلكها الأولين والآخرين ، وقد بدأت مســيرتهم مــنذ عهــد رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ولن

---

(١) سورة الزخرف الآية ٦٧ .

تـــتوقف إلى أن يـــرث الله الأرض ومن عليها ، وإليهم تشير الآية الكريمة " **وآخرين منهم لما يلحقوا بهم** " (١)

ففـــي هذا التعبير القرآني توكيد على استمرار الموكب الايماني إلى أن تقوم الساعة (٢)

لقد حان الوقت لمعرفة الخلل الذي ينخر في جسد الأمة والمسارعة إلى علاجـــه بكـــل الطرق ، واصبح من الواجب والمحتم على كل العاملين في حقـــل الفكـــر الإسلامي أن يحاولوا التوفيق والتقريب بين كل الجماعات ، وذلـــك بعقـــد نـــدوات دراسية تكون مهمتها : تقريب شقة الخلاف وإبراز مواضـــع الاتفـــاق الـــتي يجـــب أن نتعاون فيها ، وتخفيف حدة الجدل في الجـــزئيات الـــتي لا يطمـــع عاقل في إنهائها ، وتحسين الظن بالآخرين ، والخروج من الدراسة بورقة عمل أو وثيقة شرف ، يمكن أن يلتقي الجميع عليها (٣)

إن الأخطـــاء الـــتي ارتكبها بعض المنتسبين إلى الجماعة الإسلامية لا يجـــوز أبـــداً أن تستمر بعد اليوم ونحن نرى موجة التحديات الشرسة التي تواجـــه الإسلام ، والمتغيرات الدولية والأوضاع الجديدة التي طرأت على العالم بأكمله ، وجعلته سريع الإيقاع وسريع التطور بشكل مذهل .

وإذا كـــان العالم من حولنا ينطلق في كل الاتجاهات وبخطى سريعة ــ غاية السرعة ــ كيف تنشغل بعض الجماعات بمسائل هامشية عـفى عليها الـــزمن ، ومـــا وقع فيها من خلاف يجب أن يدرس كتراث فقط ، لا ليمتد

---

(١) سورة الجمعة الآية ٣ .
(٢) انظر : الطريق السوى إلى وحدة المسلمين ص ٣٦ وما بعدها محمد المجدوب ـ ط ٢ دار الشروق ـ ١٤١٥ هـ ـ ١٩٩٥ .
(٣) أين الخلل د. يوسف القرضاوي ص ٤٠ ، ٤١ ط ٦ ـ مكتبة وهبه ـ ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧ م .

إلى الحاضــــر والمســــتقبل ليوســـع هوة الشقاق والخلاف ، ويثير العصبية والبغضاء .

إن همـــوم الأمـــة الإسلامية ـــ اليوم ـــ كثيرة ، وعليها أن تواجه هذه الهمـــوم والتحديات بإرادة قوية وعزيمة لا **تليق** وتصميم لا يعرف الضعف أو الهوان ، حتى يمكنها أن تعبر هذا النفق المظلم الذي زج بها إليه ، وهذا يحـــتاج إلى تضـــافر الجهود كل الجهود ، وتعاون كل الطاقات ، وتوظيف كـــل الإمكانات ، وغرس روح الأخوة بين كل الجماعات ، وعندئـــــــــــذ ـــ فقـــط ـــ يمكـــن للأمـــة أن تلتجئ إلى الله ـــ تعالى ـــ طالبة منه العون والمـــدد ، فـــالله ـــ تعالى ـــ لا يعين الكسالى ، ولا ينصر المتبطلين ، ولا يـــنظر إلى المتشاحنين ، ولكنه ـــ سبحانه ـــ في عون العبد مادام العبد في عـــون أخيـــه ، وفـــي عون المجتمع الذي يعيش فيه ، انسجاما مع القانون القرآني الثابت " **إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** " (١)

---

(١) سورة الرعد الآية : ١١ . ينظر : مستقبل الأمة الإسلامية ص ١٤٥ ـ ١٤٧ ـ من مقال : د. محمود حمدي زقزوق ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ـ ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣ م .

الخاتمة

بعد هذا العرض السريع لهذه القضية الخطيرة ألا وهي: " أثر التعصب المذهبي على وحدة الأمة الإسلامية " نود أن نركز على ما يلي :

١ ــ طالما أن الثوابت الإسلامية واحدة وملزمة ، والغايات واحدة فيجب علــى المسلمين ــ جميعاً ــ أن يتعاونوا في المتفق عليه ، ويعذر بعضهم بعضا في المختلف فيه .

٢ ــ يجــب علينا كمسلمين في هذه الظروف الراهنة أن نجمع الطاقات ونوحــد الصــفوف بعيــداً عن التعصب للمذاهب أو الأشخاص ، فالأخطار محدقة ، والظروف قاسية .

٣ ــ إن الخلافــات الفكرية والفقهية بين أبناء الإسلام ، لا يصح أبداً أن تكــون مدعــاة للشقاق والتعصب ، ولا يصح أن تكون حائلاً أمام ارتــباط القلوب وتبادل الحب والتعاون على الخير، في جو يسوده الــود والصــفاء ، فقد اختلف صحابة رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ في كثير من المسائل ومع ذلك لم تتفرق ــ على الإطلاق ــ وحدتهم، ولم تتمزق رابطتهم ، فلماذا لا نقتدي بهم ، ونسير على منهجهم ؟ حتى نعلى كلمة الله في الأرض .

٤ ــ إننا نؤكد أن إنهاء الخلافات المستمرة في بيئتنا الإسلامية ــ والتي تحولــت إلى عصبيات متحاقدة ــ كفيلة بأن تعيد الأمة إلى رسالتها المنوطة بها .

٥ ــ يجــب أن يكون هناك تعاون وتكامل وتناسق مع جميع العاملين في حقل الدعوة الإسلامية بروح التسامح وعدم الغلو والشطط .

٦ ــ يجب علينا ألا نسيء الظن بمن انحرفوا عن المنهج الصحيح ، ولا نغلظ عليهم القول أو نعنفهم ، وإنما نعاملهم بالحسنى واللين ، ذلك

أن الخلق الحسن يؤدي إلى كسب القلوب ، ويجعل المعاند والمكابر يصـــغى إلى الحـــق والصـــواب ، والاقناع إنما يقوم على احترام مشاعر الناس وعقليتهم وآدميتهم ، وليس على ازردائهم والسخرية منهم .

٧ ــ بالـــروح الإسلامية وبالأخوة في الله ، يجب أن نفتت كل الشعارات والملصـــقات الـــتي تدعو إلى القطيعة أو التعصب لفكرة معينة أو جماعـــة بعينها ، ولنكن شعارنا جميعاً قوله تعالى :" **إنما المؤمنون أخوة** " الحجرات : ١٠

وقد أكدت ندوة الأخوة الإسلامية في أفريقيا ، والتي نظمتها رابطة العالم الإسلامي بالتعاون مع وزارة الشئون الدينية بجمهورية غينيا ــ كوناكـــرى ــ والـــتي اختـــتمت أعمالها مؤخراً على أن الأخوة الإســـلامية الـــتي نادي بها الدين الإسلامي الحنيف بإلحاح ترتكز عـــلى المســـاواة الكاملة بين أبناء البشر ، تلك المساواة النابعة عن توحيـــد الـــربوبية وتوحيد العبودية ، ووحدة الأصل ، هذه المبادئ عمليه وملموسة وملزمة [٨].

وإذا كـــان الأمـــر كذلك فإننا في الحقيقة نأسف اشد الأسف حينما نـــرى أن هذا الشعور الأخوي متبلـــد إلى حد كبير في نفوس كثير مـــن المســـلمين ، مع أنها هي الرباط الباقي ، الذي لا ينقطع ولن يزول أبداً إلى ما شاء الله .

٨ ــ يجـــب أن يفهم المسلمون أنهم أصحاب رسالة ، وحملة أمانة ، وأن هـــذه الرســـالة لا يمكن أن يؤديها الفرد وحده ، وأن الخطاب فيها

(*) نقلا عن كتاب : الأخوة الإسلامية ص ٦ .

يتوجه إلى الجماعة كلها وإلى الأمة بأسرها ، وإذا كانت المسئولية فـــي الإســـلام فردية ، وأنه ليس للإنسان إلا ما سعى ، ولا تكسب كل نفس إلا عليها ، فإن هناك مسئولية جماعية تواجهها الأمة كلها ، وتســأل عــنها كــلها ، مصــداقاً لقوله تعالى : " **وإنه لذكر لك ولقومــك وسوف تسألون** " (١) وقد خاطب القرآن الكريم المؤمنين عامة " **وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون** " (٢)

٩ ـــ ليـــس هناك وقت للتشاغل بتبادل اللوم والاتهامات أو تقديم الأعذار ، أو الاكـــتفاء باتهـــام الآخـــرين وإنما علينا أن نحدد في صراحة ووضـــوح كـــامل أولويـــات الخطى على طريق الإصلاح في جو يســـوده الحـــب والود ، حتى نخرج من الأزمة التي ألمت بنا على مـــدى ســـنوات طويلة ، وحتى نجتاز أيضاً ذلك النفق المظلم الذي تعيشه الأمة (٣)

١٠ ـــ وبالرغم مما أصاب الأمة من البلاء وما حاق بها من الأخطار فإن المســـلم الحقيقـــي لا يهـــزم نفسياً ؛ لأن الهزيمة النفسية تدل على ضـــعف الإيمان والاستسلام للواقع المرير،والتاريخ يحدثنا بهجوم التتار على المسلمين الذين ملأوا شوارع بغداد باللحوم والأشلاء ، والصـــليبيون الذيـــن هجمـــوا عـــلى المسلمين هجمة شرسة حتى وضـــعوا الصلبان على حوائط المسجد الأقصى ، والقرامطة الذين هجمـــوا على بيت الله الحرام فقتلوا من قتلوا من المسلمين ، ناهيك بعـــد ذلك بما حدث منذ عهد قريب من مذابح جماعية في البوسنة

---

(١) سورة الزخرف الآية ٤٤ .
(٢) سورة المؤمنون الآية ٥٢ ، ينظر مستقبل الأمة الإسلامية ص ١٦٧ وما بعدها .
(٣) المرجع السابق ص ١٧٠ .

والهرسك وكوسوفا والشيشان وغيرها ، ومع تلك النكبات فإن الأمة الإسلامية لن تيأس ولن تقنط ، ولن تستسلم أبداً — مهما كانت المحن والعواصف — فإن باب الأمل مفتوح مصداقاً لقوله تعالى : " **فإن مع العسر يسراً . إن مع العسر يسراً** " الشرح ٥ ، ٦ ، ويبقى الأمل معقوداً في النهاية على إعادة اللُحمة إلى الصف الإسلامي والوقوف يداً واحدة أمام كل التحديات.

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل ...

د. إبراهيم عبد الشافي إبراهيم

المراجع

- القرآن الكريم
- الإسـلام مـلاذ لكل المجتمعات الإسلامية د. محمد سعيد رمضان البوطي ـ ط ١ ١٤٠٤ هـ ـ ١٩٩٤م ـ بيروت
- إسـلام بـلا مذاهـب د. محمـد مصطفي الشكعة ـ ط ١٠ الدار المصرية اللبنانية ـ ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م
- إحيـاء عـلوم الدين للإمام أبي حامد الغزالي ـ دار قتيبه للطباعة والنشر ـ ١٩٩٢م
- الإصـابة فـي تمييـز الصـحابة لابن حجر العسقلاني ـ مطبعة السعادة ـ مصر ـ ١٣٢٨
- إعـلام الموقعين عن رب العالمين للإمام بن قيم الجوزية ـ مكتبة الكليات الأزهرية ـ القاهرة
- أصول الدين الإسلامي د. قحطان عبد الرحمن الدورري وآخرون ط ١ دار الفكر ـ الأردن ـ ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م
- الافـتراق ، مفهومه وأسبابه وسبل الوقاية منه ـ محمد عبد الكريم العقل .
- أيـن الخـلل د. يوسف القرضاوي ط ٦ ـ مكتبة وهبة ـ ١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٧م .
- جـامع بيـان العـلم وفضله للحافظ أبو عمر يوسف بن عبد البر النمري القرطبي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ١٩٧٨م
- حولية كلية أصول الدين ـ العدد السادس

- الأخـــوة الإســـلامية ــ عبد رب النبي على أبو السعود ــ ط ١ ــ مكتبة وهبه ــ ١٤١٤هــ ــ ١٩٩٠م .
- خلق المسلم للشيخ محمد الغزالي ــ دار الكتب الحديثة ــ مصر .
- أدب الدنيا والدين للإمام أبي الحسن الماوردي ــ ط ١ ١٤٠١ هــ ــ ١٩٧٨م تعليق عبد الكريم راجح .
- رســـالة المســـلمين في الحياة للأستاذ عبد الكريم الخطيب ــ ط ١ ١٤٠٢هــ ــ ١٩٨٢م
- الرسول والعلم د. يوسف القرضاوي ــ ط دار الصحوة ١٩٨٤م
- السيل الجرار للإمام الشوكاني ــ ط دار الكتب العلمية ــ بيروت
- الشـــباب المسلم في مواجهة التحديات ، عبد الله ناصف طاحون ط دار السلام ــ ١٤١٣هــ ــ ١٩٩٣م
- الشيخ علي يحيي معمر والدعوة إلى وحدة المسلمين ، محمد ناصر أبو حجام ــ مكتبة الضامري ــ عمان
- الصـــحوة الإســـلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم د. يوسف القرضاوي ط ٤ ــ ١٤١٣هــ ــ ١٩٩٢م
- الطـــريق السوي إلى وحدة المسلمين ، محمد المجدوب ــ ط ٢ ــ دار الشروق ــ ١٤١٥هــ ــ ١٩٩٥م
- ظاهـــرة الغـــلو في التفكير د. يوسف القرضاوي ــ ط ١ ــ مكتبة وهبه ــ ١٤٢٢هــ ــ ٢٠٠٢م
- ظاهـــرة الغـــلو فـــي الدين في العصر الحديث ، محمد عبد الحكيم حامد ط دار المنار الحديثة ــ ١٩٩١م
- عقيـــدة المســـلم للشـــيخ محمد الغزالي ــ دار الدعوة ــ مصر ــ ١٤٠٩هــ ــ ١٩٨٩م

- عوامل تقوية الوحدة الإسلامية في الشعائر الدينية للشيخ أحمد الخليلي ــ مكتبة الضامري ــ عمان
- فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة للإمام أبي حامد الغزالي ــ مطبعة الترقي ــ مصر
- الفروع الخلافية للشيخ محمد زكي إبراهيم ــ ط ١ ــ ١٩٩٥ ــ العشيرة المحمدية
- كيف نتعامل مع التراث والتمذهب والاختلاف د. يوسف القرضاوي ــ ط ١ ــ ١٤٢٢هـ ــ ٢٠٠٠م
- اللواء الإسلامي (جريدة مصرية أسبوعية) العدد (١٠٩٠) ٢٠٠٢م
- من أجل حوار لا يفسد للود قضية د. محمود محمد عمارة ــ ط ١ مكتبة الإيمان ــ المنصورة ــ ١٤٢١هـ ــ ٢٠٠٠م
- مجلة البيان ــ لندن ــ العدد ٧٢ ــ ١٤١٤هـ
- مجلة العالم ــ العدد ٢١٤ ــ ١٩٨٨م
- مجلة الوعي الإسلامي الكويتية العدد ٤٥٧ ــ ٢٠٠٣م
- مستقبل الأمة الإسلامية العدد (٩٩) سلسلة تصدر عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .
- مشكلات في طريق الحياة الإسلامية للشيخ محمد الغزالي ــ طِ دار البشير ــ القاهرة ــ ١٩٨٩م
- وفيات الأعيان لابن خلكان ــ دار صادر ــ بيروت ــ تحقيق إحسان عباس
- " وإن هذه أمتكم أمة واحدة " محمد الشيخ بلحاج ــ مكتبة الضامري ــ عمان .

الفهرس

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية

٧٢١٧ / ٢٠٠٤

طبع ونشر

مصر للخدمات العلمية

٧٣ ش مصر والسودان - حدائق القبة

القاهرة

